

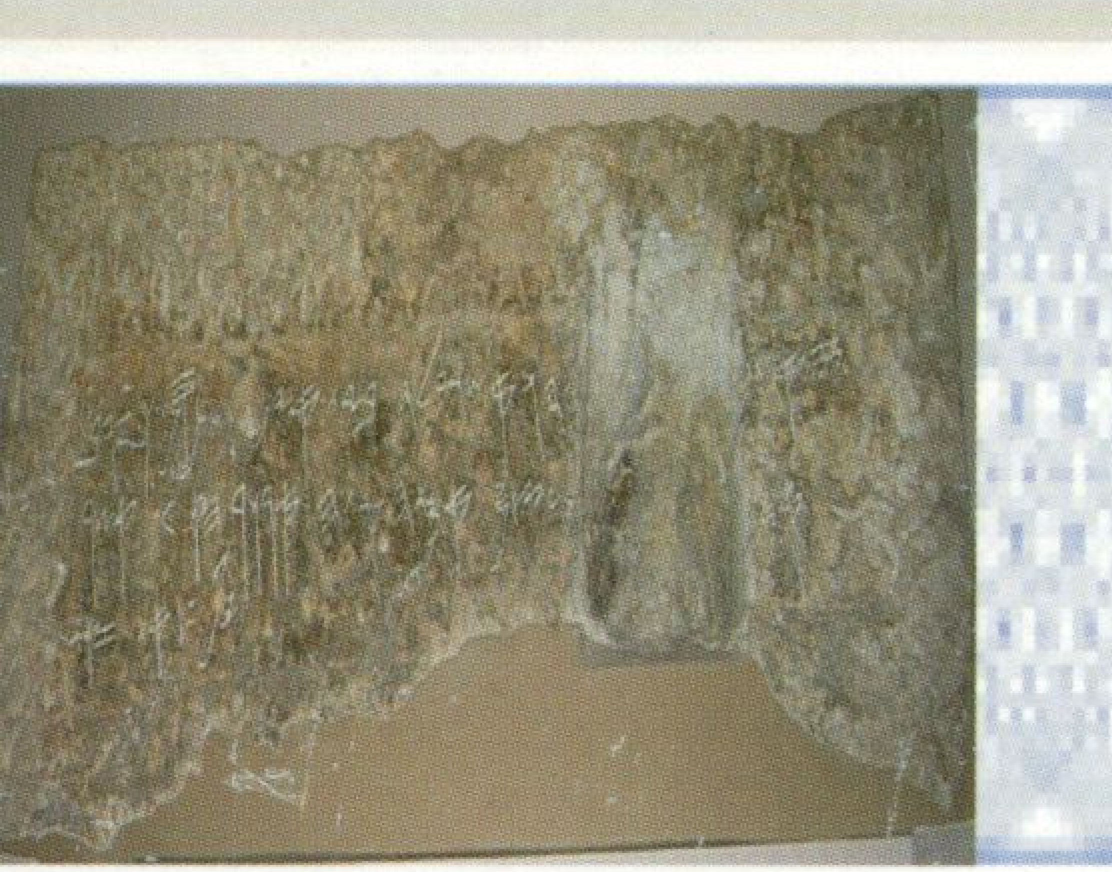
مختصر تاريخ اللغة العبرية

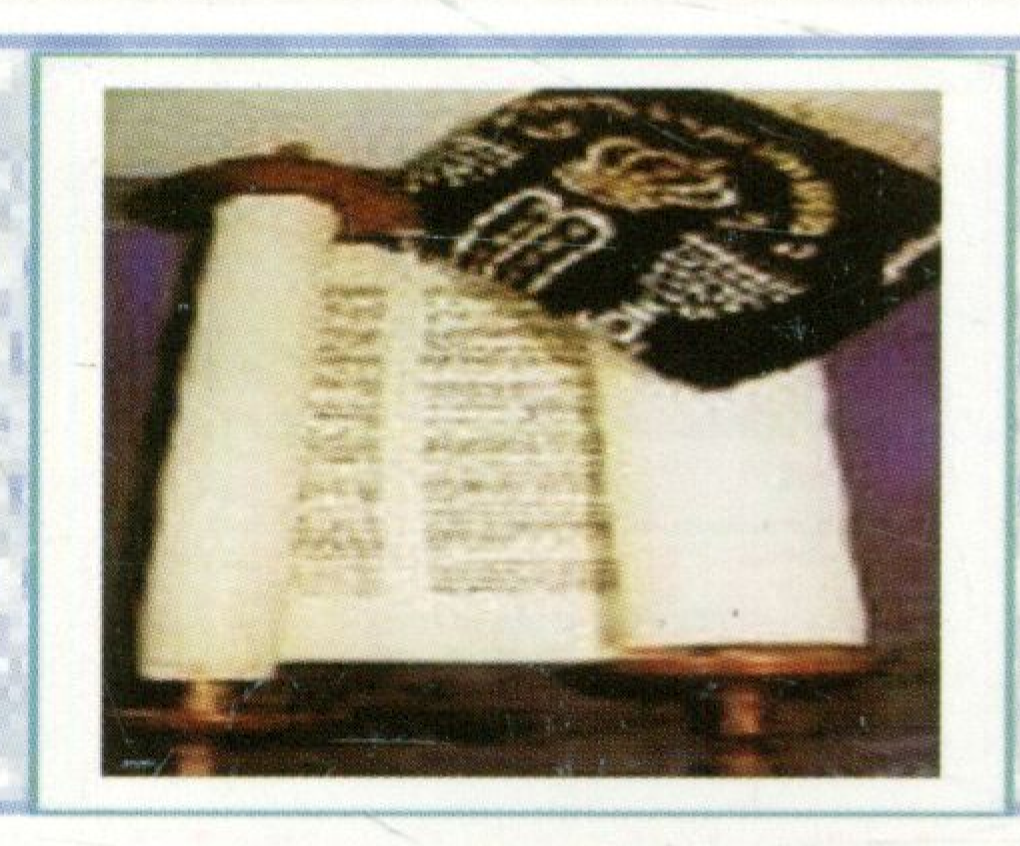
تاليف

حاييم رابين

المراجعة العلمية
د.رضا الموسوي

ترجمة
أ.د.طالب القريشي







إهـــــــداء ٢٠١٣

بيت الحكمة

العراق



مختصر تاريخ اللغة العبرية

تأليف

حاييم رابين / أستاذ اللغة العبرية

ترجمة وملاحظات

أ.د. طالب القريشي / أستاذ اللغة العبرية / جامعة بغداد

المراجعة العلمية

د.رضا الموسوي

بغداد ـ ٢٠١٠

عنوان الكتاب : مختصر تاريخ اللغة العبرية
تأليف: حاييم رابين
الناشر: بيت الحكمة - حقوق النشر جميعها محفوظة للناشر
الطبعة الأولى/ ٢٠١٠
تنسيق وإخراج : ياسمين عبدالرزاق
بيت الحكمة- العراق- بغداد- باب المعظم- هاتف اتصالنا
- ٠٧٤٠٠١٩٠٨٤٥
E-mail: baytal_hikma@yahoo.com
info@baytalhikmairaq.org

بسم الله الرحمن الرحيم

من البديهيات التي يؤمن بها المترجمون ان افضل الترجمات هـــي التي تتم عن اللغة الاصلية للموضوع المراد الخــوض فيــه ، الا ان استثناءات هذه الحالة يمكن ان نلاحظها في هذا العمل الذي تــوافرت فيه مجموعة من المهارات اولها مهارة اكاديمية تختص بتاريخ اللغة العبرية يمتلك الخوض فيها مؤلف النص.ومترجمه ومهارة اخــرى يشترك فيها المؤلف والمترجم الا وهي معرفة اللغة المكتــوب بهــا النص الاصل تتبعها معرفة ثالثة قدرة المترجم علـــى نقــل الــنص الاصل الى اللغة الهدف وهكذا ولد هذا العمل الــذي يــشهد لجهــود الاستاذ الدكتور طالب القريشي والذي يسعدنا ان نقدم له هذا العمــل ضمن اصدارات بيت الحكمة التي أخذت على عاتقها ايصال المعرفة وبكل تنوعاتها ..... والله الموفق.

د. رضا الموسوي
مشرف قسم دراسات الترجمة
في بيت الحكمة ٢٠١٠

مقدمة المترجم

الترجمة، كما هو معروف، نقل نص من لغة إلى أخرى بشكله ومضمونه بحيث يترك اثر اللغة المنقول عنها ذاتها في نفس القارئ. وقد لعبت الترجمة على مر العصور دورا في تقارب الحضارات المختلفة واغتنائها. وهذا جلي أثناء العصر العباسي الذي حظي بالاهتمام بترجمة علوم الحضارات الإنسانية المختلفة إلى العربية، حيث انبرى بهذه المهمة آنذاك السريان وغيرهم ممن انضووا في بيت الحكمة وخدمة ترجماتهم في أغناء الحضارة العربية والإسلامية التي ما لبث علماؤها أن اغنوا بإضافاتهم الإنسانية من خلال ترجمة نتاجاتهم ثانية من العربية إلى اللغات الأخرى، وقدموا بذلك خدمة إلى البشرية عامة وجعلوا الحياة أكثر يسرا وبهجة. وكلنا أمل، ومن خلال التعاون مع بيت الحكمة وغيرها من البيوت الثقافية العراقية، التي نفخت فيها الحياة من جديد، أن يؤدي كادر كلية اللغات- جامعة بغداد الدور الذي لعبه سلفهم في مدها بكل العلوم الإنسانية المترجمة إلى العربية التي من شأنها أغناء ثقافتنا ودعم تلاقحها مع الثقافات الإنسانية الأخرى.

ومن نافلة القول أيضا أن معرفة حضارة معينة يتطلب أولا ترجمة نتاجاتها، وفي حالتنا نتاجاتها اللغوية حيث أهل تلك الحضارة اعرف بتفاصيل لغتهم نحوا وصرفا وأسلوبا وبلاغة لتكون مائدة معدة لكل الباحثين في مجال الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة ليستقرئوا منها ما قد يصوب أو يقوم الآراء والنظريات السابقة، لاسيما أولئك الذين لا يجيدون اللغات الأجنبية، ويفتقرون إلى المراجع العربية، ومنها

تلك التي تعنى بدراسة اللغة العبرية، الأخت الحية الأقرب إلى لغتنا العربية.

تأتي هذه الترجمة من الانكليزية، على قصر صفحاتها وغنى مضمونها، إذن، لتضيف لبنة على ما كتب عن تاريخ اللغة العبرية، لاسيما على يد كاتب لغوي معروف بموضوعيته على الرغم من اختلافنا معه في وجهات نظر ذات طابع سياسي تمثلت في استخدامه لمصطلحات لا نتفق معه فيها، أمثال الشتات، وحقبة الشتات، والقومية اليهودية، والهولوكوست، وحرب الاستقلال وغيرها، تركناها على ما هي عليه حفاظا على أمانة الترجمة ولأصحاب الاختصاص ليدلون بدلوهم.

ولأن الكتاب يتناول تاريخ تطور اللغة العبرية فانه استخدم مصطلحات عبرية ويهودية كثيرة مجهولة على القارئ غير المتخصص؛ فإننا قمنا بتوضيح أهمها معلّمة بنجمة أو أكثر، أما ملاحظات الكاتب فهي مميزة بالأرقام، إضافة إلى أرقام صفحات نص الكتاب الأصلي بين قوسين.

نأمل من هذه الترجمة من الانكليزية أن نضيف شيئا إلى مراجعنا العربية في دراسة تطور اللغة العبرية والساميات عموما، لاسيما في مجال علم اللغة الاجتماعي حيث تميز الكاتب عن سابقيه في دراساتهم التي تناولوا فيها أنماطا مختلفة، حيث اهتم بالتأثيرات الاجتماعية في تطور اللغة العبرية، ولو باختصار، وبين من خلالها أن العبريين قد اكتسبوا لغتهم من ارض كنعان، وهي مختلفة عن لغتهم الأصلية التي جاء بها آباؤهم من ارض الرافدين، ناهيكم عن التسميات الكنعانية للمدن الفلسطينية، ومنها أورشليم التي كانت في الأصل مدينة يبوسية كنعانية.

نتمنى أن تحظى هذه الترجمة باهتمام الأكاديميين والباحثين في الدراسات اللغوية المقارنة، لاسيما في مجال علم اللغة الاجتماعي، وأن تكون إضافة متواضعة ستتلوها ترجمات مهمة لاحقة ، سواء من الانكليزية أو العبرية بعد أن لمسنا اهتمام القائمين على بيت الحكمة باحتضان المترجمين ونشر ترجماتهم وطبعها على نفقته، واخص بالذكر الدكتور رضا ألموسوي الذي شجعنا على إتمام هذا العمل، كما أقدم شكري الجزيل إلى زميلي الدكتور عامر الهيتي على مراجعته العربية وتصويب ما ورد فيها من أخطاء، سائلين الله أن يحفظ بلدنا ويعمق مسيرته الثقافية.

أ.د. طالب القريشي
كلية اللغات- قسم العبرية
بغداد ٢٠١٠

تمهيد

هنالك أساليب شتى للكتابة عن تـاريخ اللغـة. إحـداها وصـف التغييرات التي طرأت عليها بشئ من التفصيل وأثّرت في أصـواتها، وإملائها ولفظها، وقواعدها وبنائها ومفرداتها. وثانيهما وصف تاريخ أدبها وتمييز النتاجات الأكثر أهمية في كل حقبـة زمنيـة؛ أو تتبـع اتصالات هذه اللغة أو تلك باللغات الأخرى، سـواء أكانـت قريبـة جغرافيا أم تمثل حضارات وأديان أخرى، وملاحظة تأثيرات كل منها في اللغة التي نقوم بدراستها. وعلى النقيض من ذلك، يمكننا دراسـة تأثير لغتنا في اللغات الأخرى، وحجمه، وذكر أسماء العلماء البارزين الذين درسوها ونتائج باحثيها. وقد تناول الباحثون جميع هذه الطـرق التي ذكرناها، ولو بشكل غير شامل، في دراستهم للغة العبرية.

يتبنى هذا الكتاب الصغير وسيلة مختلفة. انه يـسعى إلـى تبيـان الروابط والصلات بين اللغة العبرية واليهود في مختلف الحقب وتقييم تأثير التغييرات في الحياة الاجتماعية اليهودية في اسـتخدام وصـفة اللغة والخدمات التي قدمتها لليهود في مختلف الظروف. والغـرض من هذا الكتاب هو اجتماعي- لغوي، ويستخدم نوعا من أساليب علـم اللغة الاجتماعي، دون الادعاء بعمق فهم علم اللغـة الاجتمـاعي أو التقييم العلمي للحقائق المفصلة كما بحثها ذلك العلم. وإذا ساعد قراءه على كيفية استمرار العبرية بالحياة خلال الحقبة الطويلـة للـشتات، ولماذا تم إحياؤها خلال اقل من المائة سنة السابقة، فإن الكتاب يكون قد حقق هدفه.

حاييم رابين

القدس/ حزيران ١٩٧٣

١- موجز تاريخي

استخدم اليهود اللغة العبرية في الحديث لمدة ١٣٠٠ سنة، منذ احتلال فلسطين إلى ما بعد حرب بركوخبا.* وتوقفوا عنها ما يزيد عن ١٦٠٠ سنة، وتكلموا في أثناء ذلك لغات شتى، إلى أن بدأت العبرية من جديد لتكون لغة للحديث في فلسطين نحو التسعين سنة الأخيرة.

إن أسباب توقف اليهود عن استخدام العبرية، في الحقيقة، يعود إلى استخدامهم لغات أجنبية منذ أيام السبي البابلي فصاعدا؛ فقد تحدث اليهود في بابل باللغة الآرامية، وفي مصر، أثناء الحقبة الهيلينية، باليونانية. وساد استخدام العبرية فقط يهودا (أرومة القدس)، وفي المناطق الجنوبية منها، وحول الخليل. ولم تكن هذه العنبرية توراتية تماما، وإنما اللغة التي ندعوها الآن باللغة المشنائية،** أو "لغة

---

* بركوخبا: كلمة مركبة في العبرية وتعني ابن النجم، والحقيقي لحامله هو شمعون بر أو ابن كوسيبا المتوفى عام ١٣٥ للميلاد. ويعد بركوخبا قائدا أعلن تمرده على هادريان، القائد الروماني في فلسطين، في عام ١٣٢، ودعاه الربي عقيڤا بالماشيح (المسيح المخلّص اليهودي). وأسباب تمرده غير معروفة وربما إعادة بناء أورشليم مستعمرة رومانية أو تحريم الرومان للختان. قتله الرومان بعد ثلاثة أعوام من التمرد.

** المشنائية (المشناتية): لغةعبريةعامية يظهر تأثير اللغة الآرامية فيها واضحا، وكتبت بها فصول المشنا التي تهتم بالشريعة الشفوية اليهودية ونتاجات أخرى.

الحاخامات". وعندما جردت يهودا من سكانها في حروب ٦٦-٧٠ (هدم القدس) وبركوخبا ١٣١-١٣٤، واستقرار بقية يهودها في السهل الساحلي لفلسطين وفي الجليل، توقف اليهود عن استخدام العبرية واتخذ المهاجرون اللغة الآرامية بشكل تدريجي.

وعلى أية حال، لم يتوقف اليهود كليا خلال حقبة الشتات (٧٠ ق.م. - ١٩٤٨) عن القراءة أو الكتابة بالعبرية، وألف أدب واسع خلال هذه الحقبة، بضمنه كتب في الدين، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، علاوة على أدب بسيط، وشعر ديني ودنيوي، ووصف الرحلات، وأعمال تاريخية. إضافة إلى ذلك، كان هناك دائما بعض البلدان التي كتب فيها اليهود رسائلهم الشخصية ووثائقهم بالعبرية، مثل يهود إنكلترا الوسيطة، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الذين كتبوا **(ص٧)** صكوكهم ودونوا قروضهم إلى غير اليهود بهذه اللغة.

وتبين لنا قصص أن بعض اليهود الذين ينتمون إلى بلدان شتى قد تحدثوا بالعبرية عند لقائهم مع بعضهم ولم تكن هناك لغة مشتركة بينهم. كما كان اليهود يتحدثون بالعبرية في السوق كيلا يفهمهم زبائنهم من غير اليهود، وتميز من بينهم اليهود الدينيون الذين كانوا يستخدمون العبرية في أيام السبت فقط. ومع ذلك، لم يحاول أحد تبني العبرية وسيلة للحديث اليومي العادي. لقد كان اليهود أهل كتاب؛ فأية أهمية، إذن، يمكن أن نعزوها للغة الحديث مقارنة بلغة الأدب؟ وفي القرون الوسطى لم تكن اللغة رمزا للأمة، حيث لم تكن هناك أمم بالمعنى الحديث بعد. وعندما بدأت شعوب أوربا نضالها من اجل استقلالها القومي وحقها في استخدام لغاتها القومية في الدولة والشؤون العامة، لم يعد اليهود أنفسهم، ولوقت طويل، أمة كباقي الأمم، وبدأوا

بإنتاج أدب غربي حديث بالعبرية، ولم يبحثوا عن أية وظيفة رسمية "للغة عابر"*، أو أية وظيفة لها في حياتهم، على عكس الأدب.

لقد استخدمت العبرية بشكل واسع لغة للحديث في مكان واحد فقط خلال القرن التاسع عشر. وهذا المكان هو القدس، وبقدر اقل في باقي فلسطين، وعندما كان اليهود يتقابلون هنا من مختلف المجتمعات، كان الاشكنازيون* يتحدثون بالييدش** والسفاراديون*** بالعربية. وعلى

---

*عابر هو حفيد سام بن نوح. ودعي العبريون بهذا الاسم نسبة له على حد إحدى وجهات النظر.

* الاشكنازيون: تسمية تطلق على يهود ألمانيا وأحفادهم.

**اليدش: لغة استخدمها غالبية يهود ألمانيا (الاشكنازيون) منذ القرون الوسطى، وهي مزيج من الألمانية الوسيطة والسلافية والعبرية والفرنسية القديمة والايطالية القديمة.

*** السفارديون: تسمية تطلق على يهود اسبانيا وأحفادهم، لاسيما أولئك الذين ابعدوا منها عام ١٤٩٢ واستقروا فيما بعد في شمال أفريقيا وايطاليا وفلسطين وسوريا والبلقان وفي أجزاء من الدولة العثمانية الأخرى.

غرار يهود القرون الوسطى، كانت العبرية هي اللغة المشتركة لهما، وهي اللغة الوحيدة التي كانوا يفهمونها إلى حد ما. ولما كان السفاراديون يمثلون العنصر المهني والتجاري، تبنى الاشكنازيون اللفظ السفارادي**** عند حديثهم بالعبرية في السوق، ولم يعد أي واحد منهما اللغة العبرية لغة قومية بعد.

وفي سنة ١٨٨١، وصل يهودي لتواني شاب إلى فلسطين، اسمه "أليعزر بن يهودا"، تبنى العبرية لغة للحديث اليومي. لقد آمن ابن يهودا، وهو بعد في لتوانيا، بفكرة الأمة اليهودية، وبالعبرية لغة يومية. وفي هذا المجال، نشر في ١٨٧٩ مقالة بالعبرية بعنوان "مسألة ملتهبة" "*A Burning Question*"، ظهرت في ڤيينا في الفصلية العبرية "هشّحر" "*Hashahar*" (الفجر)، عبر فيها عن آرائه الثورية. وفي باريس أيضا استخدم العبرية في الحديث. وهناك التقى بعدد من يهود فلسطين، واكتسب منهم اللفظ السفارادي. وعندما وصل إلى فلسطين، تحدث بالعبرية مع كل من قابله، وأحس أنهم قادرون على الإجابة بهذه اللغة.

وحال وصوله، بدأ التعبير عن مبدأين جديدين: على اليهود أن يتحدثوا بالعبرية فيما بينهم وفي داخل بيوتهم ومع أفراد عائلاتهم، وأن العبرية يجب أن تكون الوسيلة الوحيدة للتعليم في المدارس.

****** اللفظ السفارادي: تسمية تطلق على لفظ حروف الحلق والصفير بصوتها السامي تمييزا لها عن اللفظ الاشكنازي الذي يلفظ الحاء خاء، والعين ألفا، والراء غينا وغيرها.**

ووضع ابن يهودا نفسه هذين المبدأين موضع التنفيذ. ودرّس العبرية لوقت قصير في مدرسة "الاتحاد الإسرائيلي العالمي" *"Alliance Israelite Universelle"* في القدس، ولم يستخدم لغة غير العبرية في البيت. وعندما ولد ابنه الأول، رتب كل شئ بشكل جيد بحيث تكون العبرية اللغة الرئيسة للطفل. وقد سمي الطفل فيما بعد اتمار بن آبي، وعد الطفل العبري الأول.

٢- تطور العبرية

لقد شاع الاعتقاد بشكل واسع أن العبرية "لغة ميتة" منذ خراب الهيكل الثاني* _(٧٠ ب. م.)، وبعد ذلك استخدمت أساسا لغة للصلاة. وعلى الرغم من بعض الكتب التي دونت بها بعد هذا التاريخ، إلا أن ذلك لم يضف إليها شيئا، وبقيت ساكنة. إن هذا الرأي يعد خاطئا لأسباب كثيرة. أولها أن اللغة العبرية لم تكن في الحقيقة، مستخدمة في الحديث، لكن النشاط الأدبي في الشتات كان ضخما؛ فعدد الكتب التي الفت بهذه اللغة خلال هذه الفترة (٧٠ ق. م_ ١٩٤٨) يصل إلى عشرات الآلاف، ومن بينها مؤلفات عظيمة الشأن، وكل واحد منها ساهم بقسط في تطور اللغة العبرية من خلال تناوله مختلف الموضوعات والمشكلات. وثانيا من الخطأ الافتراض أن لغة الحديث تتطور وتنمو فقط. على العكس، فاللغات الحية أيضا يحصل فيها غنى لثروتها اللغوية، وبشكل أساس في اللغة المكتوبة. أما فيما يتعلق بالعبرية، فان حقبة الشتات تبين نشوء عشرات الآلاف من المفردات التي تعبر عن الأفكار المختلفة، والمعاهد، والابتكارات التي ظهرت بمرور الزمن. علاوة على ذلك، أضيفت كلمات جديدة كثيرة دون أي سبب خارجي، كما هو الحال في جميع اللغات عندما تهمل كلمات

***الهيكل: وهو المكان الديني الرئيس لبني إسرائيل حتى عام ٧٠ ميلادية، ويقع على جبل موريا في القدس. بنى سليمان الهيكل الأول وهدمه نبوخذنصر في عام ٥٨٦ قبل الميلاد. وقد أعيد بناؤه أيام شمعون العادل الذي يعرف بيهودا المكابي. وقد هدمه الرومان أيام حصارهم لأورشليم في عام ٧٠ ميلادية وبنوا محله معبدا رومانيا.**

كثيرة وتحل محلها أخرى. ولم تدون الثروة اللغوية لحقبة الشتات كلها بشكل تام لأنها مبعثرة في كتب كثيرة (معظمها على شكل مخطوطات)، ويتضمن المعجم التاريخي الذي أعده مجمع اللغة العبرية جميع هذه الكنوز.

ويضم معجم اللغة العبرية المعاصرة مادة لغوية تعود إلى حقب متعددة ومتتالية. وفي صفحاته كلمات نشأت خلال ثلاثة آلاف سنة، إضافة إلى بعض الكلمات التي دخلت اللغة حديثا. وجميع هذه المفردات ممزوجة ببعضها، وتشكل (ص ١٠) سوية وحدة واحدة، ومعظمها مستخدم في الوقت الحاضر. ولا يعي المتحدث العبري حقيقة هذه المفردات التي تعود إلى حقب مختلفة؛ فهي تبدو له سيان، جميعها عبرية. وإجمالا، يصعب تمييز الكلمة من شكلها الخارجي أهي جديدة أم قديمة، ومن شأن دراسة الكتب المدونة فقط معرفة سيرة حياة بعض الكلمات. وهناك بعض المعجمات التي تشير، نوعا ما، إلى وقت استخدام هذه الكلمة أو تلك. ومن بين المعجمات الكبيرة، المعجم الكبير لابن يهودا، ومعجمات ي. گور؛ وي. كنعاني، والطبعة الثانية لابن شوشان.

وتتضمن رسائل تل العمارنة،* المكتوبة باللغة البابلية قبل الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، عددا من الكلمات باللغة المحكية، وقد

*** رسائل تل العمارنة: اسم عربي يطلق على موقع عاصمة الفرعون الرابع في وسط مصر. وفي عام ١٨٨١، اكتشفت ألواح مسمارية (بضمنها رسائل من ملوك في آسيا الصغرى). ومما يلفت الانتباه أن هناك رسائل كثيرة كانت مرسلة من ملوك كنعان (عسقلان وعكا وأورشليم وصيدا وغيرها). وجميع هذه الرسائل مكتوبة غالبا باللغة الاكدية وبعضها بالحورانية والحيثية وبعضها يحمل هوامش بالكنعانية.**

اتضح أن هذه الكلمات قد احتفظت منذ بداية القرن الرابع عشر ق.م. بمعانيها حتى أيامنا هذه، مثل: *أوني*(١) (سفينة)، *قيتس* (صيف)، *عافار* (تراب)، *حامود* (محمود)، *حوما* (سور)، *كلوف* (قفص)، *لفينا* (لبنة)، *محاسور* (نقص)، *شعر* (بوابة)، *ساديه* (حقل)، *سوخين* (عميل، وكيل)، *سوس* (حصان)، *مس* (ضريبة)، وغيرها كانت شائعة في الحديث في فلسطين. هذه هي، إذن، الكلمات الأولى التي أقرت في جميع الوثائق المكتوبة. ومن خلال ذلك، يمكننا القول، إن هناك آلاف الكلمات الأخرى التي كانت شائعة في تلك الحقبة، ومنها تلك الموجودة في العهد القديم،* ولم تكن هناك حاجة لذكرها في رسائل تل العمارنة.

١- אני(ה)، קיץ، עפר، חמוד، כלוב، לבנה، מחסור، שער، שדה، (١) סוכן، סוס، מס.

***العهد القديم: مصطلح يطلق على الأسفار الخمسة والأنبياء والكتابات في حين يطلق العهد الجديد على الإنجيل.**

وينطبق الشيء ذاته على العهد القديم نفسه. فالعهد القديم يستخدم نحو ٨٠٠٠ كلمة عبرية متنوعة (تظهر منها نحو ٢٠٠٠ لمرة واحدة)، ولا يمثل هذا العدد بالطبع الثروة اللغوية جميعها لدى المتحدث العبري في الأزمنة التوراتية؛ فمفرداته، دون شك، تقرب من ٣٠٠٠٠ أو أكثر، ولم يكن لمؤلفي الإصحاحات المختلفة للعهد القديم حاجة في استخدام جميع هذه المفردات. فالعهد القديم يتناول عددا من الموضوعات المحددة، وليس هو بكتاب موسوعي. أما عدد الكلمات المختلفة في الأجزاء العبرية من المشنا،** والتوسفتا،*** والتلمودين،**** والمداريش،***** التي ندعوها عموما "العبرية المشنائية"، فهو أكبر بكثير لان تنوع موضوعاتها هو (ص١١) أكثر. ويبدو غالبا، أن الكلمات المستخدمة في المشنا، ولم تظهر في العهد القديم، كانت مستخدمة بالفعل في الحقبة التوراتية. ويمكن البرهنة

** المشنا: مجموعة القوانين الشرعية للشريعة الشفوية. ألفها الربي يهودا هنّاسي وقسمها إلى ستة أنظمة: الزروع، والفصول، والنساء، والأضرار، والمقدسات، والطهارات.

*** توسفتا: ملحق بالمشنا وهي شروح وإضافات لها.

**** التلمود: ومعناه التعليم ويطلق على مؤلفين كبيرين هما التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي، وفيهما نقاشات شرعية تتناول جوانب الديانة اليهودية.

***** المداريش: مفردها مدراش ومعناه إيجاد معنى جديد إلى جانب المعنى الحرفي في الكتاب المقدس. وقد وضع التلمود أساليب معينة في استنباط أحكام خفية ومعان جديدة.

على ذلك من خلال كلمة "مشحيزت" (*mash-hezet*) (حجر طحـــن) التي ظهرت في رسائل تل العمارنة.

وعلى الرغم من أن حجم المفردات الصغير الذي يتـــضمنه الأدب التوراتي، فإنها مع ذلك تتمتع بأهمية خاصة في دراسة اللغة العبريـــة في الوقت الحاضر. كما هو معروف، لم تستخدم جميـــع المفـــردات العبرية بتكرار متساو؛ فبعض الكلمات استخدمت بشكل كبيـــر، مثـــل رجل، وشئ، وبيت، وصنع، وتحدث، في حين أن بعـــضها اســـتخدم بشكل نادر على الرغم من معرفة المتحدث العبري العادي لمعناهـــا. وتشير البحوث العلمية إلى أن هناك ١٠٠٠ كلمة في أية لغة في العالم تتكرر بنسبة ٨٥% بشكل عام في أي نص. ومن بين هـــذه الألـــف الأكثر تكرارا في العبرية، هناك ٨٠٠ مفردة توراتية. وتتضمن قائمة المفردات الألف التي تستخدم بشكل واســـع، ويجـــري تعليمهـــا فـــي المعاهد اللغوية *Ulpanim*، نحو ٨٠٠ مفردة توراتية. وبـــذلك فـــإن أهمية هذه المفردات تتجاوز عدد المفردات الستين ألف ٦٠٠٠٠ التي تشكل الثروة اللغوية للعبرية المعاصرة.

ويبين التحليل اللغوي لأي نص صحفي أن ٦٠ الـــى ٧٠% مـــن الكلمات المستخدمة في تقارير الأخبار العادية هي كلمات موجودة في العهد القديم، بينما ٢٠% موجودة في الأدب المشنائي، أمـــا النـــسبة الصغيرة المتبقية فهي من العـــصر الوســـيط والابتكـــارات اللغويـــة الحديثة. وأوضح بحث حديث على عينة من ٢٠٠٠٠٠ كلمة متداولة، اختيرت بشكل عشوائي من الصحافة والدوريات، أن الكلمـــات التـــي تظهر أكثر من أربع مرات (والتي تـــشكل نـــصف الثـــروة اللغويـــة الموجودة في هذه الاستشهادات) هي كلمات توراتية ونـــسبتها نحـــو

٦١% في الظهور[٢] . ويعود الفرق هنـــا إلـــى تـــضمين المقـــالات الافتتاحية، وصفحات التسلية وغيرها، كلمات جديدة مبتكـــرة بعـــدد أكبر.

وتأتي حوالي ١٤٠٠٠ كلمة في المعجـم العبــري مـــن العبريـــة المشنائية. وهذا الرقم لا يشكل العدد الكامل للمفردات المستخدمة فـــي ذلك الوقت حيث كانت العبرية المشنائية تتضمن ٦٠٠٠ كلمة أخـــرى على غرار العبرية التوراتية. ولذلك فإن (المشنا، والتوسفتا، والأجزاء العبرية من التلمودين، والمداريش) تستخدم عددا كليا من المفـــردات يقرب من ٢٠٠٠٠ كلمة.

ويبين المعجم الأخير لابن شوشان، وحسب تخمين مؤلفه، أن نحو ٦٥٠٠ كلمة هي من المصادر الوسيطة، مستمدة في معظمهـــا مـــن البيوط* *Piyyut* (الشعر الديني)، ومن الكتابات الوسيطة ليهود ألمانيا وفرنسا (وبشكل أساس من تفاسير راشي)** ، ومن التراجم التي تمت

2- Rifka berezin, "As origins historicas do vocabulario do Hebraico moderno", رسالة دكتوراه من جامعة ســاو بولـــو ، البرازيـــل، ١٩٧٢. وقد أعد هذه القائمة التي اعتمدتها الدكتور رافائيل باجور.

***البيوط: من الكلمة اليونانية *poietes*، وهو شكل من الشعر العبري الطقسي، بدأ في فلسطين ما بين ٣٠٠ و ٥٠٠ للميلاد.**

****راشي: مختصر للربي شلومو يتسحاق (ابن يتسحاق)؛ ١٠٤٠-١١٠٥). وهو عالم رباني فرنسي ويعد من أشهر المفسرين للشريعة المكتوبة (التوراة) والشريعة الشفوية (التلمود).**

في جنوب فرنسا ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. وهـذه لا تمثل، ولحد بعيد، جميع الكلمات التي ابتكرت خـلال هـذه الحقبـة الطويلة ما بين التلمود وإحياء العبرية. وما تزال هذه المـادة مدونـة بشكل جزئي.

وهناك نحو ألف كلمة شائعة اليوم في العبرية مقترضة من اللغـة الآرامية. وعلى الرغم من أن الآرامية تختلف اختلافا جوهريا عـن العبرية في الصوت، والقواعد، والمفردات،* إلا أن الاهتمام الكبيـر الذي أولاه اليهود للتلمود البابلي، وفيما بعد أيـضا للنتـاج الـصوفي الآرامي، الزوهر،** أدى إلى استيعاب كلمات آراميـة كثيـرة فـي القرون الوسطى، بتغيير بسيط في الشكل من أجـل منحهـا مظهـرا عبريا. وقد واصل الباحثون المسؤولون عن توسيع المفردات الفنيـة العبرية في العصر الحديث هذه العملية، وما زالت كلمات تنتقل مـن هذا المصدر إلى العبرية بشكل مستمر.

ويضع ابن شوشان نفسه قائمة تتضمن نحو ١٥٠٠٠ كلمة ابتكرت منذ إحياء اللغة العبرية. وطالما أن هذا المعجم لا يتضمن مصطلحات فنية خالصة للعلوم الطبيعية والتقنية، فإن عدد الكلمات التي أضـيفت خلال التسعين سنة الأخيرة من المحتمل أن يفوق ذلك بكثيـر، علـى

---

* قارن الملاحظة الخاصة باللغة الآرامية في الصفحة ٤٣ من النص الأصـلي أدناه.

** الزوهر: وتعني في العبرية التألق، وهو العمل الرئيس للتيار الـصوفي فـي اليهودية (القبّالا) في اسبانيا ويتناول تفسيرات لأجزاء من التوراة ومـن الكتابـات الأخرى وينسب تأليفه إلى الربي شمعون بن يوحاي (من القرن الثـاني المـيلادي) وزملائه ومريديه.

الرغم من أننا يجب أن نطرح نسبة معينة من الكلمات التي لم تنجح في نيل القبول.

إن العبرية، على غرار اللغات الأخرى، نمت على شكل طبقات، كل واحدة منها توازي حقبة لغوية، ويمكننا أن نجد آثارا كثيرة لتلك الحقب في لغتنا المكتوبة أو المتداولة في الحديث حاليا. ولم يقتصر الأمر على إضافة كلمات فحسب، بل ساهمت كل حقبة بنصيبها من الأشكال النحوية والأبنية التركيبية. وقد اختفت بعض ابتكارات الحقب المختلفة من الاستخدام، لكن بعض الكلمات والسمات النحوية قد تم إحياؤها فيما بعد، والقسم الآخر في أيامنا هذه. وقد اتحدت جميع هذه العناصر في العبرية المعاصرة في وحدة عضوية جديدة، ولا يستطيع المتحدث العبري في إسرائيل اليوم الذي لا يتمتع بمعرفة كاملة بعمر الكلمات التي يستخدمها، مثلما هو الحال مع المتحدث الإنكليزي الذي يعرف قليلا عن الأصل التاريخي لكلمات لغته والوقت الذي دخلت فيه إلى اللغة الإنكليزية. إن الاهتمام بكشف هذه الأصول هو تاريخي وثقافي، وليس له أية علاقة بالطريقة التي يجب بها استخدام هذه الكلمات والأبنية. ويعتقد بعض اللغويين أن الاهتمام بأصل الكلمة يعود إلى الاهتمام بالأسلوب، ونتيجة للدراسة المركزة للعهد القديم، ولبعض مجالات الأدب الرباني،* فان الوعي بأصل هذه الكلمات في فلسطين يفوق أي بلد آخر.

---

* الأدب الرباني: تسمية تطلق على ما كتبه الربانيون منذ القرن الثاني قبل الميلاد، أمثال المشنا والمداريش والإضافات والملاحق والتلمودين وغيرها.

وفي الفصول القادمة، سنقدم مختصرا للحقب الأكثر أهمية، ولتطورات اللغة العبرية، وإبراز مساهمة كل حقبة في بنية اللغة العبرية.

٣- خلفية اللغة العبرية

يقسم علم اللغة لغات البشر إلى عدد من العائلات اللغوية. وتتشابه كل واحدة من هذه العائلات، إلى درجة يمكننا بموجبها الافتراض أن لغاتها قد تطورت من لغة واحدة كانت مستخدمة في الحديث في الماضي البعيد. ونعرف في الوقت الحاضر أو الماضي عن وجود نحو ٤٠٠٠ لغة، ويزيد عدد العائلات اللغوية على ١٠٠ عائلة. وقد بين البحث في مناسبات عديدة أن العائلات اللغوية التي عدت مميزة حقا شكلت عائلة واحدة. وهناك، على الأرجح، بعض "الروابط العائلية" التي ما زالت بحاجة إلى الاكتشاف، وان بعضا منها موجود ولكنه لم يكتشف بعد، إذ كلما كانت اللغة الأم عريقة في القدم، كان من الصعب إيجاد العلاقات بين أحفادها. فاللغات تتغير باستمرار، وتختفي تدريجيا السمات المشتركة للعائلة اللغوية الواحدة.

وأصبح من المؤكد خلال العقود القليلة الماضية أن العائلة التي تنتمي إليها العبرية هي متشعبة بشكل كبير. وأخذت تدعى على الأغلب، في أيامنا هذه الحامية-السامية، والأفريقية-الآسيوية، أو الأحمرية (الأخيرة نسبة إلى البحر الأحمر الذي يفصلها). وتبعا لمعلوماتنا الحالية، فأنها تتضمن المجموعات الفرعية الآتية، من الشرق إلى الغرب: اللغات السامية في آسيا وفي إثيوبيا، وتبلغ نحو ١٠٠ لغة في الصومال، وإثيوبيا والسودان وتدعى إجمالا بالكوشية Cushitic؛ واللغة المصرية القديمة ولغتها البنت، القبطية Coptic؛ وعدد من اللغات القريبة التي تنتشر ما بين غرب مصر والمغرب والصحراء الغربية، وتدعى بالبربرية Berber ، باستثناء صحارى الطوارق؛ وعدد من اللغات التشادية في غرب أفريقيا، ومن أهمها

الهوسا Hausa، التي تستخدم لغة للتجارة في منطقة واسعة. واهم سمة عامة لجميع هذه اللغات هي تصريف الفعل Conjugation of the verb. وتمتلك جميعها عموما أبنية (سببية، وانعكاسية، وما شابه ذلك) مثل العبرية، ولها سوابق ولواحق متشابهة لمختلف الأشخاص. وهناك أوجه تشابه أخرى سنتناولها لاحقا عن الكلمات المشتركة الكثيرة فيما بينها. ففي الهوسا القديمة مثلا، "*mutu*" تعني "مات"، على غرار العبرية "*mut*"، والرجل يدعى "موتوم *mutum*" التي تشابه الكلمة العبرية "*metim*" رجال. والكلمة الأخيرة توضح الصعوبات في تبيان القرابة، إذ أنها نادرة الظهور في العبرية التوراتية وإذا ظهرت، ظهرت في حالة الجمع فقط، وقد اختفت، على سبيل المثال، في العربية.

ولا نعرف الحقبة التاريخية التي تكلم بها الناس اللغة المشتركة الأم التي استمدت منها هذه اللغات، وهل تم الحديث بها في آسيا أم أفريقيا، وهل لمتحدثيها لون بني، مثل الساميين والمصريين القدماء، أم أسود مثل متحدثي التشادية الآن، أم كانوا بيضا مثل البربر. ويمكننا الافتراض عن احتمال معين هو أن هناك حقبة ما انفصلت فيها المجموعة المشتركة إلى مجموعة من الشعب تحدثت باللغة الأم، اللغة السامية، التي يمكن أن نطلق عليها اسم السامية الأولى.

وقد حصل ذلك، على أية حال، قبل أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد افترض سابقا، وبشكل واسع النطاق، أن متحدثي السامية الأولى عاشوا في الجزيرة العربية. واعتقد أيضا أن اللغة العربية الكلاسيكية، كما نلاحظها في نصوص تعود إلى القرن السادس–السابع بعد الميلاد، كانت عمليا متطابقة مع السامية الأولى. ويؤيد بعض العلماء الآن أيضا هذين الرأيين، ولكن هناك أسباب وجيهة للاعتقاد

أن جزيرة العرب كانت قد استوطنت في البداية (باستثناء بعض الجزر السكانية المتفرقة) في الوقت الذي احتل فيه الإسرائيليون كنعان، وأن متحدثي العربية الكلاسيكية كانوا أسلاف قبائل ما زلنا نجدها في القرن التاسع قبل الميلاد في الصحراء السورية الفلسطينية، وأن الأدب العربي الكلاسيكي قد تبلور في الحقبة المسيحية من خلال مزج لهجات قديمة عدة. أما بالنسبة للمتحدثين بالسامية الأم، فإننا لا نعرف أين سكنوا، ولا كيفية مجيء أسلافهم إلى البلدان التي نجدهم فيها عند بداية تدوين التاريخ. وليس من المؤكد أيضا أن متحدثي اللغات السامية المعروفة كانوا أسلاف الشعب الذي تحدث بالسامية الأولى. ومن المحتمل أيضا أن جماعات صغيرة من المهاجرين أو المحتلين قد فرضوا لغتهم على سكان تكلموا سابقا بلغات أخرى.

ومن المألوف تقسيم اللغات السامية إلى خمسة فروع، كل واحده منها تمركز حول لغة حضارة مهمة. ويدعى أقدم فرع موثق (الألف الثالث قبل الميلاد) بالفرع الأكدي، ويشتمل على البابلية والآشورية، ومحفوظ في مئات الآلاف من الوثائق والأعمال الأدبية على رقم طينية مكتوبة بالخط المسماري. أما الفرع الكنعاني فقد وثق قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بوقت قصير، ويتضمن من بين الأمور الأخرى، اللغة العبرية. أما الفرع الثالث، فهو الآرامي، الذي ظهر في البداية في نقوش في سوريا تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد. وبعد ذلك تغلغل إلى المنطقة الأكدية، وحل تدريجيا محل الأكدية لغة للحديث، وفيما بعد أيضا لغة للكتابة (على الرغم من أن الكتابات الأكدية قد دونت في القرن الأول بعد الميلاد)، وبالطريقة نفسها أبعدت فيما بعد بعض اللغات الكنعانية.

وقد استخدم اليهود لهجات آرامية متنوعة في أوقات مختلفة: " الآرامية الرسمية" في جنوب مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، والآرامية التوراتية، وآرامية الترگومات* (ترگومات العهد القديم)، وآرامية التلمود البابلي، والآرامية الجليلية للتلمود الفلسطيني، ولغة الزوهر (في أسبانيا في القرن الثالث عشر)، ومختلف أنواع الآرامية التي يتكلمها اليهود في هذه الأيام في كردستان (شمال العراق) وفي أذربيجان (شمال غرب إيران) التي تمتلك أدبا أيضا. وتعد اللغة السريانية اللغة الرئيسة للفرع الآرامي (من القرن الثاني إلى القرن الثالث عشر للميلاد) ذات الأدب المسيحي الواسع. وتأتي بعدها اللغة المندائية في جنوب العراق، التي كانت واسطة أدبية روحية. أما النقوش المبكرة للفرع الرابع، وهو العربية، فتعود تقريبا إلى الألف الأول قبل الميلاد، وتظهر في مناطق على حافة جزيرة العرب. وقد صيغت لغة الحضارة، العربية الكلاسيكية، كما ذكرنا أعلاه، بين ٣٠٠ و ٦٠٠ للميلاد. وامتلكت هذه اللغة أدبا شفويا ذي كمال فني عظيم عندما نشرها الفاتحون المسلمون في القرن التاسع في المنطقة التي احتلتها سابقا اللغات السامية وما بعدها، وجعلها الاتصال بالثقافات اليونانية والفارسية من أعظم اللغات الأدبية والعلمية للجنس البشري. وبقيت العربية الأدبية وحدة واحدة من عُمان إلى موريتانيا، ولكن اللهجات المحلية كانت مختلفة كثيرا، ويمكن اعتبارها في الحقيقة لغات منفصلة. وباستثناء الاستخدام الأدبي لليهود (انظر الفصل التاسع، الملاحظة الثانية) وفي الحوار في بعض الروايات، أصبحت لغة الحديث العربية لغة كتابة ناضجة في مالطا، حيث كتبت

---

* مفردها ترگوم وهي كلمة أرامية معناها مترجم، وهي الترجمة الآرامية للكتاب المقدس.

بحروف لاتينية. واستخدم اليهود العربية لأغراض أدبية بشكل واسع. ومن المحتمل أن النقوش العربية الأولى قد سبقتها نقوش بعدد من اللغات، ظهرت في جنوب اليمن، سميت إجمالا بالعربية الجنوبية. وقد حفظ القسم الأعظم منها بالسبئية، لغة مملكة سبأ – التي استمرت حتى سنة ٦٠٠ بعد الميلاد تقريبا، وضمت في مراحلها المتأخرة بعض النقوش التي كتبها يهود. أما الآن فان العربية هي المستخدمة، وعلى الرغم من ذلك فان تأثير آثار العربية الجنوبية يمكن أن نجده في اللهجات المحلية. وقد حفظت العربية الجنوبية حتى هذا اليوم في عدد من اللغات اللاأدبية المحكية في الطرف الجنوبي من عُمان (الأمهرية، والشهرية وغيرهما) وفي جزيرة سوقطرة في المحيط الهندي. وهناك لغة تنتسب إلى العربية الجنوبية كتبت في شمال إثيوبيا باسم الجعزية (الإثيوبية الكلاسيكية) من القرن الثالث بعد الميلاد فصاعدا، طورت أدبا واسعا سوية خلال حياتها وأيضا بعد توقف استخدامها في الحديث، كما حفظت بعض الكتابات التوراتية المزيفة Pseudepigragha،* وبعض الأعمال الطائفية التي استخدمها الفالاشا.** وهناك الآن في إثيوبيا عدد من اللغات السامية، تنحدر كليا أو جزئيا من الجعزية، وتعد الأمهرية من بينها اللغة القومية لإثيوبيا والوحيدة التي تمتلك أدبا حديثا.

ولفترة ليست ببعيدة، اتفق عموما على أن كل واحد من هذه الفروع قد شكل في وقت ما لغة مشتركة، وانحدرت منه لغات

***الابوكريفا والبسيدوكرافيا: مصطلحان يطلقان على الأدب اليهودي اللاشريعي خلال حقبة الهيكل الثاني وبعد تدميره.**

**** الفالاشا: تسمية تطلق على الطائفة اليهودية الإثيوبية.**

ولهجات شكلت ذلك الفرع خلال أزمنة تاريخية. وقد كون العلماء من جديد صورة، بموجبها هاجر كل فرع من تلك اللغات الأصــلية مــن جزيرة العرب على شكل موجات وفق النظام الذي سردناه هنا.

وتعود الفروع المختلفة، بطبيعة الحــال، إلــى الــسامية الأولـــى Protosemitic ، (ص١٨) ولذلك فان جميع اللغات السامية قد عبر عنها بشجرة عائلة، تشكل الأكدية فيها فرعا رئيسا بحد ذاته، ويــدعى بالسامية الشرقية، في حين أن الكنعانية والآرامية قد عدتا سوية سامية شمالية غربية، بينما العربية والعربية الجنوبيــة والأثيوبيــة جنوبيــة (غربية) سامية. وقد اضطربت صورة هذا التطور للغــات الــسامية، على أية حال، عندما اكتشفت حديثا بعض اللغات التي لا تتفق مع أي فرع من هذه الفروع. وهذه اللغات هي الأوگاريتية (اكتشفت في سنة ١٩٢٩) في الزاوية الشمالية الغربية للمنطقة السامية ١٥٠٠- ١٢٠٠ قبل الميلاد تقريبا، والأمورائية وهي اللغة التي عرفت فقط من خلال أسماء أعلام شعب تواجد في الألفين الثالث والرابع قبل المــيلاد فــي شمال العراق، وفي سوريا، ومن المحتمل أيضا في فلسطين إن كانوا يمثلون أولئك الاموراثيين *Emorites* الذين وردوا في العهد القديم.

ولم تظهر بعد صورة جديدة للروابط بين اللغات الــسامية، لكــن بعض العلماء يعتقد أن بعض الفروع التي ذكرناها قد ظهر من خلال انقسام لغة أقدم، وبالأحرى من خلال تأثير لهجات معينة في أخــرى حواليها.

وتشبه العبرية تقريبا، على الأقل في مجال الإملاء القديم الخــالي من الحركات، جاراتها الأقرب، الفينيقية في الشمال الغربي والمؤابية في الشرق. وهي قريبة أيضا في المفردات (ولــيس فــي الــصوت والقواعد) من الجارة الشمالية المباشرة، والأكثر قدما الاوگاريتيــة.

ونمتلك الآن اقل من ٤٠٠ رسالة كتبت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في فلسطين، وسوريا وفينيقيا (لبنان في الوقت الحالي) إلى ملك مصر وممثليه في آسيا، اكتشفت سنة ١٨٩٠ في تل العمارنة في شمال مصر. ويعود سبب حفظها إلى حقيقة أنها كتبت باللغة البابلية على رقم طينية، في وقت كانت فيه البابلية نوعا من اللغات العالمية. وقد وقع النسّاخ الذين لم يكونوا متضلعين تماما باللغة البابلية في أخطاء نحوية عديدة تبرز بناء لغتهم الأم، وأضافوا أيضا عددا من ترجمات الكلمات بلغتهم، موضحة بخط مسماري، وتشير إلى جميع الحركات.

ومن خلال هذه الأشكال والكلمات أدركنا أن لغة الحديث في فلسطين في ذلك الوقت كانت شبيهة بالعبرية، أو بالأحرى امتلكت سمات معينة وجدت فقط في العبرية والفينيقية، وليس في لغة معروفة لنا.

إن حقيقة وجود لغة شبيهة جدا للعبرية كانت مستخدمة في الحديث في فلسطين في القرون التي سبقت الخروج تثير سؤالا صعبا. فأسلاف العبريين، الآباء، جاؤوا من وادي الرافدين حيث كانت هناك لغات مستخدمة في الحديث مختلفة عن العبرية؛ فكيف، إذن، يمكننا توضيح استخدام العبريين لغة قريبة جدا للغة الكنعانيين الذين احتلوا أرضهم؟ إن الجواب المحتمل الوحيد، على ما يبدو، هو أن العبريين غيروا لغتهم في وقت ما من تاريخهم، وربما يلمح سفر التكوين لمثل هذا التغيير في اللغة في وقت مبكر من حقبة الآباء حيث يخبرنا (٧: ٣٤) عن النصب الذي أقامه يعقوب تذكارا لميثاقه مع لابان:"ودعاه لابان يجر سهدوتا (بالآرامية) ودعاه يعقوب گلعاد (بالعبرية)". لذلك فقد أخبرنا أن عائلة إبراهيم استخدمت بعد جيلين لغة مختلفة عن لغة

أقربائها الذين تركتهم في وادي الرافدين. وربما يمثـل هـذا التغيـر باللغة أيضا عن حقيقة أن الآباء قد حملوا أسماء مختلفة عن تلك التي منحها الإسرائيليون لأنفسهم في الحقبة التوراتية، طالما أننا لـم نجـد ذكرا في حقبة العهد القديم عن أي شخص دعي باسـم أبراهـام، أو إسحاق، أو يعقوب الخ، باستثناء الآباء، ومن ناحية أخرى، ليس مـن الواضح تماما أن القصة قد قصدت الإشارة إلى أن يعقوب قد تكلم لغة مختلفة، وأن مؤلف سفر التكوين قد علم أن التغير قـد جـرى بعـد الاحتلال، ولكنه ميز يعقوب من خلال أخلافه. وما تزال حقيقة تغيـر اللغة صعبة مهما افترضنا أي تـاريخ. ونحـن نعـرف أن الآبـاء وأخلافهم لم يندمجوا في البداية مع الكنعانيين، وأنهم لـم يتزاوجـوا معهم، بل استقروا منعزلين، وأن الإسـرائيليين قـد أقـاموا، علـى الأغلب، في أجزاء من البلاد حيث كان السكان الكنعـانيون بعيـدين عنهم، في مثل جبال أفرا يم.

وقد عبر بعض العلماء عن الرأي في أن الإسرائيليين لم يتكلمـوا كنعانية خالصة، وإنما كانت لغتهم مزيجا من الكنعانية ومـن لغـتهم السابقة. ولم يقصد من هذا الرأي الإجابة على أسئلتنا السوسيولوجية، بل من أجل توضيح سمات نحوية ومعجمية للغة العبرية، مثل وجـود أشكال متوازية أو تطور لا متناغم لبعض الأصوات السامية الأصلية. إن هذا الرأي عن العبرية كلغة مزيجة لم يجد قبولا عاما بين الباحثين كأفضل توضيح للظاهرة المذكورة آنفا. وفي الحقيقة لسنا قادرين على الجزم فيما إذا كانت العبرية تتضمن أو لا تتضمن عناصر من اللغة التي تحدث بها العبريون قبل دخولهم أرض كنعان، لأننـا لا نعـرف كيف كانت تبدو تلك اللغة. وليس لدينا معلومات كافية عـن كنعانيـة

حقبة تل العمارنة لنجزم بثقة فيما إذا كانت هناك سمة معينة موجودة في الكنعانية السابقة للإسرائيليين أم لا.

ويخبرنا العهد القديم مرارا أن كنعان أيام حقبة الاحتلال الإسرائيلي كانت مأهولة. ليس فقط بالشعب المعروف بالكنعاني، وإنما أيضا بشعوب أخرى. ولم تحدد هوية جميع الأسماء المذكورة بنجاح بوحدات أثنية من مصادر أخرى، ولكن يمكننا القول إن بعض هذه الشعوب كانت سامية، مثل الحوريين والحيثيين. وفي الوقت ذاته الذي دخل الإسرائيليون فيه البلاد من الشرق، دخلها من جهة البحر أيضا شعب غير سامي، أو ربما ائتلاف من شعوب عدة، عرفت لنا باسم الفلسطينيين. وتبين لنا أسماء مرسلي بعض الرسائل من تل العمارنة في أن من بين بعض حكام المدن الفلسطينية كانت حورانية (الحورانيون التورانيون) وأعضاء من عنصر آخر تحدثوا بلغة هندو-أوربية مشابهة على الأغلب للسنسكريتية المبكرة. ولذلك يمكننا السؤال، إذا تبنى الإسرائيليون لغة جديدة في كنعان، فإنهم اتخذوا الكنعانية وليس قسم من قبائلهم اتخذ الكنعانية، في حين اتخذت أخرى الحورانية، وربما الفلسطينية، تبعا لسيادة سكان معينين في كل قسم من البلاد التي استقر الإسرائيليون فيه. فكيف لم تستقبل العبرية كلمات حورانية وفلسطينية في وقت كانت مستعدة فيه لقبول الكلمات الأجنبية من خلال ظهور مئات الكلمات البابلية المقترضة في مرحلتها الكتابية المبكرة ؟

وبالطريقة نفسها يمكننا أن نطرح سؤالا آخر: لقد سكن الإسرائيليون في مصر ١٩٠ سنة تقريبا، فأين نجد في اللغة آثار هذا الاتصال الطويل بتلك الحضارة المتطورة؟ هناك في العبرية ٤٠ كلمة تقريبا مقترضة من المصرية، ولكن هذه الكلمات تمثل أسماء

مؤسسات مصرية مثالية أو بضائع أو مصطلحات تجارية، وهذا ما يحصل عند الاتصالات التجارية بين بلدان متجاورة، وليس من خلال تعايش ودي لأجيال عدة.[3]

وعلى أية حال، تمتد المشكلة أيضا إلى رسائل تل العمارنة ذاتها، فنحن نتوقع أيضا أن تلك الرسائل التي كتبت في بلد مأهول، وحسب القصة التوراتية بسبع أمم من خلال ابتعادها عن استخدام البابلية، يجب أن تظهر آثار لغات عدة، تبعا للسكان الذين قطنوا المدينة التي أرسلت منها كل رسالة. وعليه فإن كلمات لغة الناسخ يجب أن تكون في إحدى المرات آمورية، وفي الأخرى گرگشانية *Girgashite*، وأن الرسائل أل٢٧ من أورشليم، التي كتبها حاكم يحمل اسما حورانيا، يجب أن تتضمن كلمات حورانية، أو ربما يبوسية *Jebusite*، طالما أن أورشليم كانت مدينة يبوسية. حقا أننا لا نعرف شيئا عن الگرگشانية *Girgeshite*، أو اليبوسية *Jebusite*، ولكننا نعرف الكثير عن الحورانية. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن رسائل *Puti-Hepa*، ملك القدس، تتضمن نصيبا كثيرا من الحواشي مكتوبة باللغة المحلية، إلا أنها موجودة في رسائل من أنحاء أخرى من

---

٣ – أدعى أ. أس. يهودا في عام ١٩٢٩ أن (في الانكليزية: A. S. The كثيرا من العبارات في الأسفار الخمسة هي مصرية:

Accuracy of the Bible, New York 1935).

ولم يقبل العلماء آراءه؛ ولكن حتى لو كانت صحيحة، فإنها تشير إلى سمات معينة من القصة، وليس إلى التأثير المصري في اللغة العبرية في حد ذاته.

فلسطين هي ليست مختلفة بأي شكل نظامي عن رسائل من فينيقيا أو مركز سوريا (بلاد آمورو).

ومن هنا، سيتملكنا الانطباع أن اللغة الكنعانية المحلية التي نجد لها برهانا واضحا في رسائل تل العمارنة لا تمثـل اللهجـات المحليـة المحكية، التي تختلف دون شك أيضا في داخل الكنعانية ذاتها، لكنهـا كانت تحتل مكانة أدبية لغوية معروفة في جميع المدن، وربما نالـت تهذيب النسّاخ أساسا. وليس من المستبعد أن هذه اللغة قـد أسـست على لهجة مدن البحر التجارية العظيمة جبيل *Byblos* وصور *Tyre* وصيدا *Sidon*. وإذا تبنينا هذا الرأي، سيكون من السهل جدا أن نوضح حقيقة تأثر الإسرائيليين بهذه اللغة التي احتلت مكانة مهمة. ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك تأثيرا فقط لا تغييرا تاما للغـة، وأن الإسرائيليين تبنوا منها حقا سمات لافتة للنظر لا غير. وفي الحقيقـة، تبين رسائل تل العمارنة التي كتبت بالبابلية كم كانـت هـذه اللغـة معروفة ومؤثرة في تلك الحقبة، في حين كان تأثير البابلية والآشورية أيام حقبة القضاة والملوك الإسرائيليين الأوائل في حالـة انحطـاط. ولذلك من المحتمل أن تكون الكلمات الأكدية المقترضة في العبريـة، المرتبطة بالأبنية الفاخرة قد جاءت إلـى الإسـرائيليين مـن خـلال اتصالهم بالحرفيين، ويمكن أن نجد هذا الشئ في المدن الكبيرة. وتبدو هذه الوسيلة هي الأرجح، التي دخلت من خلالهـا كلمـات حبـشية ومصرية إلى العبرية؛ فقد أقامت المدن الفينيقية تجارة واسعة سـوية

مع مصر في الجنوب وأيضا مع الإمبراطورية الحبشية في آسيا الصغرى، التي دمرت قبل احتلال الإسرائيليين لكنعان.[٢]

ونجد إرثا آخر للمرحلة الكنعانية في العبرية يتمثل في الكلمات الهندو-أوربية التي ذكرناها سابقا. ويمثل حاملوها على الأغلب مجموعة صغيرة من الجنود المحترفين، وبشكل أساس مقاتلو العربات. وهناك في العبرية خمس كلمات تقريبا جاءت من لغتهم، ونحو عشر إلى خمس عشرة كلمة من المحتمل أن تكون من المصدر نفسه. ومعظم هذه الكلمات هي على الأغلب عن الخيول، والعربات، والأسلحة. وليس من المحتمل أن يكون أعضاء هذه المجموعة قد لعبوا أي دور مهم خلال أو بعد الاحتلال الإسرائيلي، أو أن تلك الكلمات قد انتقلت مباشرة من لغتهم إلى العبرية. لقد دخلت هذه الكلمات إلى الحديث الكنعاني بالتأكيد قبل أو بعد حقبة تل العمارنة ووصلت العبرية سوية مع باقي الكلمات الكنعانية. ولكن طبيعة هذه المادة، التي ارتبطت بنشاطات طبقة المحاربين الارستقراطية، تجعل من الصعب الاعتقاد على أنها انتقلت إلى العبريين من خلال اتصالهم بجيرانهم القرويين؛ فمعرفة مثل هذه الكلمات يتطلب اتصالا ببعض عناصر الطبقة الاجتماعية العليا.

وهناك شئ آخر يتطلب الإيضاح وهو الافتراض بقيام نوع من الاتصال مع الدوائر الأدبية ألا وهو السمة اللغوية للشعر التوراتي في صورته المسماة بالتقابل، التي تعرف ب "قافية المعنى" التي يعبر فيها شطرا البيت الشعري عن الفكرة ذاتها بكلمات مختلفة، غالبا

٢- من الممكن، على أية حال، أن بعض الكلمات الحيثية من الممالك الحيثية اللاحقة (لوفيان) في شمال وريا، أو حتى من الحيثيين الفلسطينيين الذين ذكروا في الكتاب المقدس (الذين يعتقد بعض العلماء أنهم كانوا حقا حوّيّين).

بمترادفات تشبه إحداها الأخرى في الشطرين. إن عـــدد مثـــل هـــذه المترادفات في أية لغة هو بالأحرى محدود، إلا أن هذا الـــزوج مـــن المترادفات مستخدم بشكل كبير في الشعر التـــوراتي. وقـــد اكتـــشف الباحثون أن عددا كبيرا من هذه الأزواج من الكلمات يظهر بـــشكل واسع الاستخدام نسبيا في الشعر الأوگاريتي، وقليلا أيضا فيما بعد في النقوش الآرامية. وقليل من كلمات هذه الأزواج هو غير موجود فـــي التوراة باستثناء التقابل، ولكنها شائعة في الكلمات اليومية في لغـــات أخرى، مثل *pa'al* (عمل، فعل) في الفينيقية، والأوگاريتية (*ba'al*) مقابل العبرية *'asah* ، أو *hazah* (شـــاهد) فـــي الفينيقيـــة، وفـــي الأوگاريتية (hdy)، والآرامية مقابل العبرية *ra'ah*. وقـــد دمـــرت أوگاريت قبل الاحتلال الإسرائيلي، ومن الصعب الافتراض أن رقمـــا أوگاريتية ونسخا من الملاحم قد وصلت أيدي الشعراء العبـــريين، أو أنهم قد قرأوها في حالة حصولهم عليها. والتفسير الأرجح لذلك هـــو أن مثل هذه الأمور الأسلوبية قد أصبحت معروفة للعبريين من خلال الكنعانية المحلية أو من خلال الشعر الفينيقي. وهذا يفترض، على أية حال، اتصالات بشعب مثقف، وليس بالقرويين المحليين.

ويعتقد بعض العلمـــاء أن اللغـــة الأصـــلية للإســـرائيليين كانـــت العمورية، حيث تزامن عصر الآباء مع الوجود الأقصى للعمـــوريين في بلاد ما بين النهرين. ومن ناحية أخرى، نجـــد أن الإســـرائيليين، وتبعا للكتاب المقدس، لم يعدوا أنفسهم على قرابة بالآمورائيين الـــذين وجدوهم في شرق الأردن وفلسطين، بـــل علـــى العكـــس، شـــعروا بالاشمئزاز تجاههم. ومن الصعب تقدير أهمية ذلك طالما أن تماثـــل أموريي (آموري) الكتاب المقدس مـــع عمـــوريي (عمـــورو) بـــلاد الرافدين لم يبرهن عمليا بعد. ومن المحتمل جدا أن حاملي الأســـماء

العمورية لم يكوّنوا الجماعة السامية الغربية الوحيدة التي قطنت بين سكان وادي الرافدين في وقت إبراهيم، حتى وإن افترضنا أن قوم إبراهيم هناك تكلموا لغة سامية غربية ليسهل عليهم الاتصال بسكان كنعان وتبنوا أخيرا، جزئيا أو كليا، لغة الأخير. ونعرف عن العموريين أنهم نجحوا في تأسيس أو اغتصاب عرش ممالك وأصبحوا طبقة عليا، ولكنهم ربما كانوا هناك أقل الجماعات نجاحا حيث لا نعرف عن لغتهم أو عنهم شيئا.

وقد عرفت عائلة إبراهيم لنا بسبب التطور المثير لأحفادها في بلد آخر (بعد تغيير لغتها)؛ ولكن ماذا كنا سنعرف عن بثو أو لابان إذا لم يأخذ إسحاق ويعقوب زوجاتهما من هناك؟ وعلى نقيض الملوك والتجار العموريين، لم يستخدم لابان نسّاخا ليخلد اسمه وأعماله على رقم طينية، ولا نعرف أية لغة تحدث بها.[٣]

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك الوسائل لاقتفاء تطور شكل الحديث الذي استخدمته الجماعة التي انبثق عنها الآباء، يمكننا الافتراض بثقة أنهم قد ورثوا، على غرار كل قبيلة سامية أخرى، مجموعة متنوعة من الكلمات التي لم تتغير جزئيا منذ السامية الأولى، وجزئيا ابتكرها أو اقترضها أحفادهم من شعوب أخرى في أثناء تجوالاتهم. لقد كانت على الإطلاق لغة "نقية". وعندما وصل بعض متحدثيها إلى كنعان وجدوا هناك لغات أخرى، مرت بشكل متشابه بتطورات وتأثيرات متنوعة. ومن خلال الاتصال بين عالمي اللغة المركبين والمعقدين، ولدت العبرية. ويمكننا القول إن السبب المباشر لنشوء العبرية هو الحنكة الروحية التي جلبت إبراهيم من وطنه البعيد إلى أرض كنعان.

٤- العبرية التوراتية

أدى الاحتلال الإسرائيلي لكنعان إلى استيطان القبائل، وبقدر ما يتعلق الأمر بالجانب الغربي من الأردن، في مناطق كبيرة ثلاث: الجليل، وسلسلة الجبال المعروفة بإفرايم، ومنطقة جبال جنوبي أورشليم وتدعى يهودا. أما السهل الساحلي، الذي كان مأهولا بشكل كثيف، فقد قاوم محاولات القبائل العبرية لاحتلال أقاليمهم الموزعة. ولم يتمكن الإسرائيليون، بسبب تجهيزاتهم الرديئة من محاصرة سلسلتي المدن المحصنة التي ربطت الساحل بوادي الأردن وما بعده: وادي گزريل وممر أورشليم. وقد فصلت هاتان المنطقتان من الإقليم الكنعاني المناطق الإسرائيلية الثلاث الواحدة عن الأخرى، ومنعت اندماجها في وحدة سياسية وثقافية واحدة. ونلحظ بشكل خاص انعزال قبيلة يهودا. كما نعرف قليلا جدا عن تاريخها في الحقبة الفاصلة بين كالب *Caleb** ، ما بعد الاحتلال مباشرة، وبين داود. وتتناول الأحداث المروية في سفر القضاة، وقصص صموئيل وشاؤول، تاريخ القبائل الشمالية فقط.

وتبين قصص سفر القضاة أن القبائل الشمالية، أيضا، عاشت حياة منعزلة، واتحدت فقط لغايات محددة أوقات الضرورة. وكانت علاقتهم

---

* أحد قادة قبيلة يهودا أثناء تجوالاتهم في صحراء سيناء قبل دخول بني إسرائيل إلى فلسطين من مصر.

لأخرى تتجسد في المعبد في شيلوح،** حيث كان الناس يتقابلون من مختلف القبائل في المناسبات الدينية.

وتبعا لما وجدناه في مكان آخر وتحت ظروف مشابهة، يمكن الافتراض أنه كانت لكل قبيلة لهجة خاصة، وربما أيضا اختلافات محلية واضحة في اللغة في بعض المناطق القبلية. وقد ذكر مثل هذا الاختلاف في سفر القضاة ١٢: ٦ من أن الافرايميين يمكن تمييزهم من خلال قولهم *سبّولت* بدلا من *شبّولت* (سنبلة)، وهو الشكل الذي أستخدمه أهل گلعاد الذي يمثل الكلمة العبرية القياسية. وقد عد ذلك غالبا أنهم كانوا يلفظون كل شين سينا، كما نجده في العصر الحديث في اللفظ العبري أللتواني وفي جنوب المغرب. وعلى أية حال، عندما حدث هذا الاختبار اللغوي عند مخاضة النهر، فإن كلمة *شبولت* التي سئل عنها لم تكن تعني " سنبلة "، بل "دوامة في نهر"، وأن استخدام السامخ* للإشارة إلى اللفظ الافرايمي ربما ليبين أن الافرايميين كانوا ما يزالون يمتلكون الصوت السامي الأصلي مثل الصوت الانكليزي th الذي أصبح في لهجات أخرى شينا. وليس هناك، بالطبع، أي سبب في أن تخبرنا التوراة عن خصوصيات قبلية أخرى لم تلعب مثل هذا الدور في الأحداث التاريخية.

**** شيلوح: هو المركز الديني الإسرائيلي بعد احتلال يوشوع لفلسطين ويقع على بعد ٢٥ ميلا شمال القدس.**

***اسم الحرف الخامس عشرة في الأبجدية العبرية، ويلفظ الآن سينا على غرار حرف السين في الأبجدية ذاتها.**

ولدينا قصيدتان من وقت عصر القضاة هما: نشيد ديڤورا** في القضاة: ٥، وصلاة حنّا في صموئيل الأول ٢: ١- ١٥. ويلاحظ الباحثون في التوراة أن هاتين القصيدتين تمثلان جزءا من مجموعة قصائد تتضمن أيضا مباركات يعقوب (التكوين ٤٩)، وأنشودة البحر الأحمر (الخروج ١٥)، وقصائد في قصة بلعام (العدد ٢٤ – ٢٥)، ونشيدا في سفر التثنية ٣٢، ومباركات موسى (التثنية ٣٣)، وجميعها تبين لغة مشابهة للغة أنشودة ديڤورا . وباستثناء أنشودة ديڤورا، أعتقد الباحثون لفترة طويلة أن تلك النتاجات هي إبداعات متأخرة، ولكن بحوث الأستاذ U. F. Kassot (١٨٨٣- ١٩٥١) ، أستاذ في فلورنس وبعد ذلك في القدس، وضع نظرية مفادها أن هذه القصائد هي بمثابة جزء من ملحمة قومية عظيمة روت قصة الخروج من مصر وانتصارات بني إسرائيل. وتبين معاينة لهذه القصائد المتنوعة أنها لا تمثل تقاليد قبيلة واحدة، وإنما الشعب كله. وموضوع هذه القصائد هو " شعب الله " (القضاة ٥: ١١، الخ)، وعندما تذكر القبائل بالاسم، فإنها تروى عادة وكأنها تسعى سوية من اجل هدف مشترك. ومن الممكن أن يكون هدف هذه الملحمة توحيد القبائل في عمل مشترك، وربما ضد الفلسطينيين. ولذلك يمكننا الافتراض أن لغة هذه القصائد لم تكن لغة أية واحدة من هذه القبائل، وإنما لغة شعرية خاصة، مختلفة عن كل اللهجات القبلية ولكنها واضحة للجميع في آن

** اسم نبية متوفاة نحو ١١٥٠ قبل الميلاد؛ وزوجة لبيدوت. أثارت القبائل الإسرائيلية ضد الملك الكنعاني تابين حزور وقيسارية. وتعد أنشودة النصر المنسوبة إليها (القضاة:٥) إحدى المؤلفات القديمة المحفوظة المكتوبة باللغة العبرية.

واحد، ونجد مثل هذا لدى شعوب كثيرة في مرحلة الثقافة الشفوية. ومن البديهي أن تكون مثل هذه اللغة مبنية على لهجات القبائل التي استخدمتها، أي القبائل الشمالية، وليست لهجة يهودا.

إن الأصل الشمالي للغة الشعرية لتلك الحقبة يمكن أن يعزز من خلال سمات معينة في أنشودة ديڤورا. ففي القضاة ٥: ١١ نقرأ :" أشيدوا *(yetannu)* بانتقامات الرب" تشابه الكلمة العبرية *shinnah* (كررّ) التي اشتقت منها كلمة مشنا، ولكن بالشكل الآرامي، كما هو الحال في الآرامية متنيتا *matnita* للمشنا. وفي الآية ٢٦ لدينا "وضربت/ وسحقت (*mahaqah*) رأسه، وسحقت *(mahatzah)* وتغلغلت إلى هيكله". والشكل الأولي للكلمة هو حسب قوانين الآرامية المبكرة، في حين نجد مثلا *arqa* بالنسبة للكلمة العبرية *eretz* ارتس- بلاد / أرض (في الآرامية المتأخرة يظهر هذا الفعل بصورة محا *meha*). وهنا علينا أن لا نفترض أن هذه الكلمات قد أخذت من الآرامية. على العكس، ففي النقوش الآرامية التي كتبت خلال قرون بعد أنشودة ديڤورا، نجد الصوت السامي الأصلي th ممثلا بالحرف sh شينا (حيث ليس هناك إشارة أخرى في الأبجدية قد أخذت من الكنعانية لكتابة ذلك الصوت)، كما أشار الأستاذ ي. كوتشر في كتابه "*تاريخ الآرامية*" (١، ١٩٧١)، إلى أن أنشودة ديڤورا هي أقدم وثيقة تبين تغيرها إلى التاء النموذجية للآرامية المتأخرة. وهناك سمة شمالية أخرى وهي ظهور -*sha*، الموجودة في الفينيقية أيضا، والمقابلة للكلمة العبرية *آشير asher* (الذي) (الآية ٧). وهذه الأشكال هي على الأغلب محلية وأصلية جارية بين القبائل الإسرائيلية الشمالية. وهنا نجد الظاهرة المعروفة "isoglosses": لهجات أو لغات متصلة ببعضها غير منفصلة بحدود حادة، وفي كل منها نجد

الحديث مختلفا في كل مجال، ولكن السمات التي من خلالها يختلف شكلا الحديث فان لكل واحد منهما حدود منفصلة خاصة به. ولذلك فان السمات التي اعتدنا نسبتها إلى لغة ما ربما تتوسع بعيدا إلى إقليم الأخرى. فالشخص الذي يعبر من قلب لغة ما إلى إقليم الأخرى (مثلا من فرنسا إلى ايطاليا) سيكون مدركا أن الكلام الذي يسمعه حوله يتغير تدريجيا من قرية إلى أخرى، دون أن يكون قادرا على وجه الدقة القول متى عبر هذه اللغة- إلا إذا كانت هناك حدود إقليمية. ولذلك فان السمات التي تزاملت مع الآرامية والفينيقية كانت جارية أيضا في أجزاء من إقليم الإسرائيليين.

ومن الممكن أن تتبنى اللغة الشعرية، كونها قبلية عالية، أشكالا من لهجات مختلفة، تستخدمها أيضا لتأثيرات أسلوبية، مثلما لاحظنا ذلك في الكلمات التي تعني "يضرب أو يسحق". ولا يمكننا القول أيهما كانت اللهجة الرئيسة التي بنيت عليها اللغة الشعرية. ولا يبدو أن ذلك الحديث هو حديث مدينة شيلوح، لأنها تقع في إفرايم، ولا نجد في النصوص مثالا عن الظاهرة التي تجسدت في *سبّولت* إلى *شبّولت*. وعلى أية حال، فإن هذه اللغة الشعرية، التي كانت جارية ذات مرة، هي على الأرجح اللغة التي استخدمها الكهنة في شيلوح لأجل الاتصال بأناس من القبائل كافة.

وقد أنجزت القبائل تحت التهديد الفلسطيني قدرا من الاتحاد، وفعل الملك شاؤول كثيرا من أجل تعزيز وحدة القبائل الشمالية، حتى نجح في تحقيق تعاون محدود مع قبيلة يهودا، لاسيما حصوله على موافقة داود للانضمام إليه. وبعد موت شاؤول، سيطر داود على جميع القبائل وتقدم لاحتلال أورشليم، وبتلك الوسيلة سيطر على شريط الإقليم الكنعاني الذي منع التعاون بين القبائل الشمالية والجنوبية. وقد

استقر داود في أورشليم مع رجال أخذوا من جميع القبائل. وبنى سليمان الهيكل في أورشليم وجلب لخدمته كهنة لآويين من جميع أنحاء البلاد. وجذب الهيكل الناس من جميع الأنحاء إلى مهرجانات الحج وباقي أيام السنة للأضاحي الخاصة. وبرزت حول الهيكل والمحكمة الملكية نخبة من النسّاخ. وكان أنصار الحكمة، والأنبياء، الذين لم يكونوا تركيبا من رجال ينحدرون من قبائل متنوعة فحسب، ولكن كانوا مهتمين بإيصال رسالتهم إلى جميع القبائل مفهومة من قبلها جميعا وبالتساوي. والشيء الأهم من وجهة نظر تطور اللغة هو إقامة سليمان خدمة مدنية انتشرت في جميع أنحاء البلاد، وكانت على اتصال بالكل. وفي مجال الواجبات الإلزامية عمل رجال من كل مكان خارج إطار أقاليمهم سوية مع رجال من أنحاء أخرى من البلاد.

وقد تطلب النظام المركزي لغة موحدة. واحتاجت الإدارة لغة مكتوبة ومحكية ومفهومة دون عائق في جميع أنحاء المملكة، يستطيع أي خادم مدني تعلمها بسرعة، ويجب أن تكون من ناحية أخرى غنية بشكل كاف، ومرنة لتعبر بفعالية عن المفاهيم الجديدة والكبيرة المرتبطة بالإدارة المعقدة، والسخرة، وعبادة الهيكل، والتجارة الخارجية الآخذة بالنمو التي وصفت في سفر الملوك الأول، الإصحاح العاشر. ويبدو أن هذه اللغة قد ابتدعت في البداية في العاصمة من خلال اتصالات رجال مختلف القبائل، لاسيما في البلاط، وانتشرت أيضا لكونها لغة العاصمة والمحكمة، ونقلها الموظفون المبعوثون إلى خارج أورشليم. وحالما بدأت هذه اللغة الجديدة المشتركة بالاستخدام في الوثائق الرسمية، أصبحت بمرور الزمن مستخدمة من قبل كتاب

مؤرخي الأحداث الملكية، وبدون شك تعكس أسفار الملوك، المؤسسة جزئيا على اقتباسات من مثل هذه الأحداث، لغتها أيضا.

ويمثل هذا الشكل اللغوي، وتبعا لتوحد بني إسرائيل تحت حكم داود وسليمان (٩٩٨- ٩٢٦ ق.م.)، العبرية الكلاسيكية لحقبة الهيكل الأول. ويمكننا أن نلحظ سمتين بارزتين لهذه اللغة: تجنب الأشكال التي تشبه الآرامية (مثل الفعل *تِنّا tinnah* الذي ناقشناه فيما يتعلق بأنشودة ديڤورا)، والاستخدام الثابت للاسم الموصول *آشير asher* متجنبة *-she* الحقبة السابقة. وهاتان السمتان تميزان لغات الأقوام التي أحرزت توّا الوحدة والاستقلال. وكما رأينا أعلاه، لم تكن هناك حدود حادة بين اللغات القريبة من بعضها. إن الاستقلال الوطني في حالات تتحدث فيه دول مجاورة مثل تلك اللغات التي تعبر تدريجيا إلى مناطق الدولة الحديثة العهد، يميل إلى تمييز سمات لغتنا عن لغات الدول المجاورة. وإذا امتلكت بعض اللهجات أشكالا غير موجودة في اللغة المجاورة، في حين أن الأشكال الأخرى مشتركة مع الأخيرة، أو أن الشكلين متبادلان، فإن الأفضلية ستمنح إلى اللفظ، والشكل النحوي، أو إلى الكلمة غير الموجودة في اللغة الأخرى. وفي هذا المجال، هناك قيمة خاصة للأشكال والكلمات التي تتكرر كثيرا في الحديث والكتابة، ولذلك فإنها تستخدم علامة نستطيع من خلالها تمييز لغتنا في الحال وبسهولة. ويؤدي الاسم الموصول *آشير asher* (الذي) هذه الوظيفة بشكل تام بسبب تكراره، لاسيما في الأسلوب الرسمي حيث الجمل الثانوية كثيرة. ومن السهل أيضا تعلم استخدامها الصحيح، مثلما هو من السهل أن تحل كلمة محل أخرى، *-she*، في جميع استخداماتها. وأصل *آشير*، ودراسة أصلها وتاريخها يعد بمثابة أحجية. وعلى ما يبدو فإنها كانت مستخدمة في لهجة يهودا، من خلال

تعلمنا من العبارة *آشير ل* للتعبير عن المضاف، التي تظهر في سفر التكوين وبشكل أساس في آيات مرتبطة بالبيت الملكي ليهودا وبالهيكل. ويزودنا استخدام *آشير* بتمييز واضح بين العبرية التوراتية والفينيقية، التي تستخدم -*sh*، ولو ليس فيما يتعلق بالمؤابية، حيث تظهر *آشير* أيضا. وبالطريقة نفسها فإن اجتناب الأشكال اللهجية العبرية المشابهة للعبرية كانت وسيلة مقنعة في تمييز العبرية. وهنا يأتي دور عنصر آخر. ففي الوقت نفسه الذي أصبح فيه داود زعيما للدولة الإسرائيلية جميعها، قامت مملكة آرام- دمشق، التي بدت كأنها أول صحوة آرامية قومية، وقفت في معارضة سياسية للمملكة العبرية الجديدة. وتجسد ذلك، على ما يبدو، عندما أخذت اللغة "الآرامية القديمة" شكلا استخدم فيما بعد في أنحاء سوريا. وما قلناه عن آلية اللغات القومية الجديدة يجعل من الممكن بروز ميول مشابهة للتمييز أيضا لعبت دورا في تحديد معايير الآرامية الملكية، ووضع حد خاص معارض للعبرية. ولذلك فإن أشكالا مثل *تنّا*، ومحق، وما شابههما، اكتسبت صفة كلمات تذكرية بلغة عدو لا يمكن أن تكون مقبولة في الاستخدام، على الأقل ليس في الوثائق الرسمية. ودون شك، استمر استخدام مثل هذه الكلمات في القرى كما هو عليه الحال في السابق، ومن خلال لغة الفلاحين دخلت إلى الأدب، كما في حالة *natar* *نطر* (حرس) في مقابل الكلمة العبرية *natzar* (نانسر) التي تعني الحراسة (عموما). ومن المثير أيضا، بقاء الشكل الآرامي مستخدما الذي يعني (يحمل حقدا)، في حين أن العلاقة الدلالية لمفهوم "الحراسة" لم يكن واضحا.

إن اللغة الرسمية التي استخدمتها البرجوازية الملكية كانت دون شك جافة نوعا ما، ولكنها اكتسبت في الحال صقلا أدبيا عندما

استخدمها الكهنة في الهيكل، الذين اعتادوا على البلاغة والصيغة الجزلة للمعرفة التقليدية. وبينما حاول أولئك الذين كتبوا نصوصا لمنشدي الهيكل المحافظة على الصفة العامة للعبرية الكلاسيكية، فإنهم بالطبع نهلوا من التقاليد الشعرية التي كانت قائمة قبل الأيام الملكية (فبالإضافة إلى الشعر الشمالي الذي وصفناه، هناك نغمة مستقلة ليهودا). وقد مكن التوحد الكامل للسكان الكنعانيين في دولة تحت قيادة سليمان الشعراء من أن ينهلوا بشكل أكبر من المصادر التي دعاها H. L. Ginsberg "البضاعة الرائجة للشعراء الكنعانيين" من أجل تطوير موهبتهم في نسج كلمات من خلال دراسة النماذج المتوفرة. وتحتل حقيقة وجود نوع من الكلام الشعبي الذي استخدم أشكالا شعرية، لاسيما التقابل، الذي تبناه معظم الأنبياء، أهمية في تطور الأسلوب العبري. وقد حوّل اتحاد الأسلوب البلاغي في الشعر، الذي ازداد قوة بالفكر النبوي، العبرية الكلاسيكية إلى وسيلة رفيعة في التعبير نجدها في أحاديث إشعيا وإرميا.

والسؤال الوجيه هنا هو إلى أي مدى كانت فيه عبرية المملكة مفتوحة للاقتراض من اللغات الأخرى. إن معظم الكلمات الأجنبية المقترضة في العبرية، كما رأينا، تؤرخ على الأرجح منذ الاتصالات المبكرة بين العبريين والكنعانيين، وأصبحت من وقت داود جزءا جوهريا من اللغة. وكان الأنبياء، لاسيما إشعيا، ميّالين إلى استخدام الكلمات الأجنبية للغة البلاد التي حصل أن تنبأؤا فيها، ولكن هذه التزيينات كانت بيئية، وليس لدينا شاهد يؤكد تغلغلها في الاستخدام العام في ذلك الوقت. إن الموضوع الذي تم مناقشته بشكل كبير هو الحقبة العبرية التي سبقت السبي وتضمنت كلمات مقترضة من الآرامية. ويميل الباحثون الآن غالبا إلى الحذر في افتراض الأصل

الآرامي لكلمة تظهر في نصوص حقبة المملكة. فالكلمات ذات الشكل الآرامي، كما رأينا، ربما تكون قد انحدرت مـن اللهجـات العبريـة الشمالية، وإذا كانت نظريتنا عن التجنب الواعي للأشكال هي آراميـة صحيحة، فإن هذا سيجعل من غير المحتمل دخول كلمـات آراميـة أصلية في تلك الحقبة إلى اللغة الأدبية. ويبدو، من ناحية أخـرى، أن هناك مصطلحات دخلت في الاستخدام الحر عبر التجارة الخارجيـة، ولذلك لدينا كلمات هندية جنوبية مثـل *ahalot أهـالوت* (خـشب يستخدم في صناعة البخور، و *tukkiyyim توكّيم* لطيور الطـاووس التي استوردها سليمان)، أو كلمات عربية جنوبية مثـل *mor* مـور (المر: صبغ راتينجي يخرج من سـاق شـجرة المـر)، و *sharot شاروت* (قوافل)، و*ma'arav معراف* (تجارة) فـي حزقيـال ٢٧. وعدت الكلمات اليونانية في السابق إشارة مؤكدة للأصـل المتـأخر (نهاية حقبة الهيكل الثاني) للنص الذي وجدت فيه. ومنـذ اكتـشاف النصوص التجارية اليونانية وغيرها في النص المقطعي في"المؤلـف ب" في مسين *Mycene* من القرن الخامس عشر ق.م.؛ فليس هنـاك ما يمنعنا من الإقرار بإمكانية وجود الكلمات اليونانية المفترضة قبـل الحقبة الإسرائيلية الكنعانية. ففي خلال عصر المملكة، زار البحـارة اليونانيون دون شك شواطئ فلسطين، ولم يتعلم السكان الإسـرائيليون منهم أسماء الأماكن البعيدة فحسب، بل أيضا البضائع والمخترعـات. ولهذا فإن كلمة *talpiyot طلبيوت* في نشيد الأناشيد ٤:٤ يجـب أن تكون يونانية (بعيدة عن الجزم)، وهذا لا يمنعنا من ردها إلـى أيـام سليمان، عندما وجدنا دون شك الكلمة اليونانية *lishkah لشكا* (قاعة، رواق)، من الكلمة اليونانية *leshkeh لشكي* (قاعة عامة)، وحرفيـا (قاعة للمحادثة).

ونعرف من سفر الملوك الثـــاني ١٨: ٢٦، وإشـــعيا ٣٦: ١١ إن هذه اللغة الرسمية لعهد المملكة قد دعيت باليهودية. وربما نرى فـــي هذا الاسم أثر دليل آخر لرأينا في أن انبثاق العبرية الكلاســيكية قـــد ارتبط بشكل خاص بالأحداث التي جعلت من قبيلة يهودا جزءا متمما من نظام الحكم الإسرائيلي.

لقد انتهى توحيد القبائل بعد ٧٠ سنة، في ٩٢٦ ق.م. وكان هنـــاك مرة أخرى حد سياسي بين القبائل، ما عدا أنه امتد في هذا الوقت إلى شمال إقليم بنيامين، وأن شقّي بني إسرائيل كانا في اتـــصال مباشـــر، دون أي إقليم أجنبي يفصل بينهما. وقد اتخذت مملكتا يهودا وإسرائيل طريقتين مختلفتين في الدين، والثقافة، وفي الاتحاد الـــسياسي. ومـــع ذلك، فإن اللغة القومية لم تزل مع توقف الوحدة القومية. وهناك فـــي الحقيقة بعض الدلائل التي تشير، على الأقل في حقـــول معينـــة مـــن استخدام اللغة، إلى أن المملكة الشمالية كان لها نـــوع مختلـــف مـــن العبرية إلى حد مـــا. (ص٣٣) وقـــد اتـــضح ذلـــك فـــي Ostraca الاوستراكا السامرية،* وهي مجموعة من الأواني المنقوشة بـــالحبر– كما هي عادة ذلك الوقت– تسجل المدفوعات إلى الخزينة الملكية من النبيذ والزيت. وعلى الرغم من رتابتها، إلا أن هذه النقـــوش تظهـــر شكلين غير موجودين في كتاب توراتنا: *shatt* مقابل *shenat* "سنة" (كما هو الحال في الفينيقية)، و*yn*، التي تلفظ دون شك *yēn* ، لكلمة *yayin* (نبيذ)– وهي كلمة غير موجودة في النقوش الفينيقيـــة حتـــى

---

* أوستراكا: عبارة عن كسرة من إناء خزفي تحمل نقشا استخدم فـــي الأزمنـــة القديمة في الرسائل والوصولات وغيرها، وغالبا ما يعطينـــا صـــورة عـــن الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية والتطور الأبجدي واللغوي سواء في السامرة أم في لاكش.

الآن، وغير مستعملة في الآرامية، ولكن تهجئة الكلمة الفينيقية *bt* تقابل العبرية *Byit* دار/ بيت (ولكن في الآرامية المبكرة *byt*). وهذه ربما تمثل أشكال الحديث حول مدينة السامرة، ويجب أن ننظر إليها بالطريقة نفسها التي اتبعناها تجاه الأشكال التي تبدو كالآرامية، أي كدلالة على الفواصل اللغوية التي وجدت في الإقليم الإسرائيلي، حيث انسجم قسم من الحديث العبري مع الشمال، في حين انسجم قسم مع الجنوب. ويبدو أن موظفي مملكة إسرائيل قد أصروا على استخدام هذه النواة من التهجئة المحلية في الوثائق الرسمية. وعلى عكس ذلك، فإننا نمتلك عملين أدبيين من المملكة الشمالية، هما أسفار عاموس وهوشع. فعاموس كان أحد سكان يهودا، ولكن يصعب الاعتقاد بإصراره على مخاطبة جمهوره الشمالي بلغة لم يستخدمها. أما هوشع فكان شماليا، ويستخدم كلمات غير موجودة في أسفار توراتية أخرى، وقسم منها ربما هو عامي مستخدم في السامرة. ومع ذلك فإن هوشع لم يستخدم أبدا حرف العطف *-she* (*sha-*)، ولكن فقط آشير، وليس هناك أشكال تبدو كالآرامية. والاستنتاج الذي نستقيه من ذلك هو أن مملكة الشمال قد استمرت في استخدام، على الأقل لأغراض أدبية، العبرية الكلاسيكية خلال حقبة داود وسليمان، على الرغم من أنها قد اكتسبت على ما يبدو لونا محليا معينا. والأمثلة على الاستخدام المتواصل للغات قياسية بعد الانفصال من البنى السياسية التي خلقتها، كثيرة هي في التاريخ، مثل اللغة الانكليزية في الولايات المتحدة، واللغة الاسبانية في جنوب أمريكا، واللغة الألمانية في الامبرطورية النمساوية، واللغة الآرامية بعد سقوط آرام- دمشق.

لقد استخدمت العبرية الكلاسيكية نحو ٤٠٠ سنة، حتى تدمير أورشليم في سنة ٥٨٦ ق.م. ويبدو من المستحيل خلال هذه الحقبة

الطويلة أن لا تتغير تلك اللغة المحكية، حتى في مدينة أورشليم ذاتها. ولكن اللغة المكتوبة بقيت نفسها في القواعد وفي معظم المفردات، باستثناء الأسلوب. وهذا يعني أن العبرية الكلاسيكية كانت لغة أدبية تكتسب بالتعليم، وخدمت بشكل أساس النخبة الاجتماعية، حتى وإن كان الشعب يفهمها. وكان العنصر المساعد على محافظية اللغة هو العادة المنتهجة في تلك الحقبة؛ فلم يكن مؤلفو الرسائل- الكتب يكتبونها بأنفسهم، وإنما نسّاخ مهنيون كانوا يدونوها تعلموا لغة الكتابة سوية مع النص. وكان لهؤلاء النسّاخ اهتمام مهني في الحفاظ على معايير اللغة بصرامة قدر الإمكان، وذلك بسبب الفجوة الكبيرة بين اللغة المحكية والمكتوبة، وتمتع أولئك الذين تناولوا المكتوبة بشكل صحيح بأهمية كبيرة.

وعندما دمر نبوخذنصر أورشليم، نقل الكهنة والنسّاخ والحرفيين إلى بابل، وترك تجار الخمر والفلاحين فقط في يهودا (الملوك الثاني ٢٥: ١٢)، أي القرويين. ولذلك لم يبق هناك في يهودا من يستمر بالعناية باللغة الأدبية الكلاسيكية. وقد استمر النفي سبعين سنة، وهذا يعني أن هناك أناسا ولدوا في بلد أجنبي وربما أصبح لهم أحفاد. وخلال هذه الحقبة، تعلم المنفيون الحديث بلغة محيطهم. وكانت اللغة المحكية في بابل آنذاك هي الآرامية، في حين استخدمت البابلية القديمة (الأكدية) في وسائل الاتصال المكتوبة فقط. وعندما احتل ملك فارس، كورش، الإمبراطورية البابلية في عام ٥٣٩ ق.م. ألغى استخدام البابلية في الوثائق الرسمية واستبدلها باللغة الآرامية المكتوبة الأكثر سهولة، وقدمها ملوك الفرس إلى أجزاء من إمبراطوريتهم لم تكن تحت الحكم البابلي. لذلك أصبحت الآرامية، التي كانت أصلا اللغة الأكثر انتشارا في الشرق الأوسط، الآن أيضا لغة الاتصال

المكتوبة بين شعوب تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، من الهند إلى نوبيا (إستير ١: ١). وقد اكتشفت نقوش باللغة الآرامية في الهند، على حد سواء في الأجزاء التي تقع تحت السيطرة الفارسية، وأيضا في النقوش التي وجدت في شمال غرب الهند التي حكمها حاكم عموم الهند، الملك أشوكا، الذي جلس على العرش في سنة ٢٧٢ ق.م. أما بالنسبة لنوبيا، الآن شمال السودان، فإننا نمتلك مجموعة كبيرة من الرسائل والعقود من مدينة يب (الفنتاين)، بعد أسوان الجديدة، وجدت في موقع يهودي عسكري أقامه الفرس هناك قرب حدود نوبيا. وجميع هذه الوثائق مكتوبة بالآرامية، على الرغم من أن بعض الباحثين استطاعوا تمييز تأثير الكلام العبري في مؤلفيها.

وبالنظر لتمتع الآرامية بهذه المكانة؛ فليس من الغريب أن جلب أولئك المنفيون، الذين لبوا دعوة كورش للعودة إلى يهودا، معهم عادة استخدام الآرامية في الأمور الخاصة والعامة وكان أمرا ضروريا بالنسبة لهم ليكونوا قادرين على جعل السلطات الفارسية الاعتناء بهم. وقد ورد في سفر نحميا ٨: ٨ أن عزرا الكاتب كان يقرأ الأسفار الخمسة جهرا في الساحة المجاورة لبوابة الماء "فقرأوا في سفر توراة الله جهرا (مفسرا) ومبلغين المعنى حتى فهموا القراءة". وأصبح واضحا في السفر نفسه أن "أنهم علموا" تشير إلى التوضيحات التي قدمها اللاويون إلى الشعب. أما بالنسبة للمصطلح الآخر "مفسر"؛ فإن التلمود البابلي (لفافة ١ أ) يوضح كلمة "مفسّر" على أنها تعني "مترجم"، ويستخدم الكلمة التي تشير إلى التراجم الآرامية للكتاب المقدس. وقد تمت الإشارة إلى عادة كانت جارية أيام الإمبراطورية الفارسية في قراءة الوثائق المكتوبة بالآرامية بشكل منفصل، في نوع من الترجمة المتزامنة، بلغة المخاطبين، كما أولي اهتمام إلى كلمة

فارسية بنفس معنى "ترجمة" التي تشير إلى القراءات الفارسية لكلمات كتبت في نصوص فارسية تعود إلى ما قبل ٥٠٠ للميلاد بالآرامية (كما هو الحال بالإنكليزية عندما يكتب أحدهم 1b ويقرأها "پاوند"). وإذا كان تفسير هذا المصطلح صحيحا، يمكننا الافتراض أن هذه الترجمة كانت ضرورية للمنفيين الذين عادوا توا، ولا يستطيعون فهم عبرية الكتاب المقدس، ومن المحتمل أن يكون للترجمة إلى الآرامية هدف منح القراءة صفة الإجهار أمام السلطات الفارسية.

ومن الإصحاح العاشر من سفر نحميا تتضح لنا حملة لتحرير المجتمع اليهودي من عناصر غريبة، وفي ضوء ذلك (نحميا ١٣: ٢٤)، ندرك أن ذلك قد تضمن عملا مضادا لتغلغل اللغات الأجنبية، بسبب الزواج المختلط الذي أدى إلى جعل "نصف أبنائهم يتكلمون الأشدودية وكانوا غير قادرين على التكلم باليهودية"... في حين لم ترد أية ملاحظة عن حملة مضادة لاستخدام الآرامية، التي لم تكن لها أية علاقة بالزواج المختلط. ومن ناحية أخرى، فإن ذكر "يهودية" كنقيض "للأشدودية" يدل بوضوح ضمنا أن العبرية كانت ما تزال مستخدمة.

وقد استنتج بعض الباحثين، على أية حال، من ذكر كلمة ترجمة في سفر نحميا وفي عدد آخر من الإشارات أن العبرية قد توقفت عن الاستخدام في الحديث بعد السبي البابلي. فالشعب، حسب ادعائهم، قد تكلم بالآرامية، واستخدم العبرية فقط لغة للقراءة والكتابة في الأمور الدينية. وما زال البعض يحمل هذا الرأي في هذه الأيام. إن أولئك الذين عاشوا خارج فلسطين تحدثوا، دون شك بالآرامية حيث كانت اللغة العامة، وباليونانية في مناطق كانت اليونانية مستخدمة فيها في الحديث. وحتى في بعض من أجزاء فلسطين، مثل الجليل والسهل

الساحلي، حيث شكل اليهود جزءا من سكان مزيج، تكلموا بالآرامية واليونانية. واستخدم اليهود كلتا اللغتين الآرامية واليونانية في الكتابة أيضا، ليس فقط خارج فلسطين، بل أيضا في يهودا، وحتى في الشؤون الدينية، كما نلحظ ذلك في النصوص الآرامية التي وجدت بين لفافات البحر الميت وبعض شظايا ترجمة يونانية للكتاب المقدس وجدت في كهوف قرب البحر الميت. ولكن العبرية استمرت على الأغلب في الاستخدام في الحديث، وبشكل جديد، كما سنرى في الفصل القادم، واستمرت أيضا مستخدمة في الكتابة بشكل واسع وبنفس اللغة الكلاسيكية التي كانت مستخدمة قبل النفي. ومن الطبيعي أن يعد يهود يهودا لغتهم المحكية والعبرية التوراتية لغتين متميزتين، بل رأوا في العبرية التوراتية الشكل الأدبي للغة التي تحدثوا بها. وقد درّس هذا الشكل الأدبي في بيوت_الدراسة (دار الدراسة، انظر ابن سيرا ٥٢: ٢٣). وأي امرئ يكتب شيئا؛ فإنه كان يستخدم هذه طالما أن تعليمه يسمح بذلك، وكان بعضهم ناجحا بشكل أكبر في محاكاة المصادر القديمة، بينما وقع الآخرون في أخطاء تظهر تأثير لغتهم المحكية.

ومع مرور الوقت، ازداد تأثير اللغة المحكية، ونتج أسلوب مزيج، يجمع بين قواعد وتراكيب ومفردات اللغتين التوراتية والمحكية. وفي التلمودين والمداريش هناك صفحات عدة تبين استعمال مثل هذا الأسلوب في كتب التاريخ الشعبية. وفي هذه الحقبة أيضا بدأ الشعب خلالها الصلاة في الكنس على طول البلاد إضافة إلى الصلوات التقليدية للكهنة في هيكل القدس. ونستطيع أن نتحقق من أسلوب هذه الصلوات من اللغة التي استخدمت فيما بعد في صلاة الفريسيين التي تتطابق مع الأجزاء القديمة لكتاب الصلاة اليهودي المستخدم الآن.

٥- العبرية المشنائية

يلاقي طالب العبرية منذ الوهلة الأولى أقوالا مأثورة من التلمود، وقصصا من المدراش عن الآباء،* وما شابه ذلك، وربما يقرأ قسما من أخلاق الآباء. وإذا كان هذا الطالب مرهف الحس تجاه اللغة، فإنه لن يخفق في ملاحظة اختلاف هذه النصوص اختلافا جوهريا عن نصوص العهد القديم. ولكنه عندما يتعلم شيئا عن تاريخ الأدب العبري، فانه سيكتشف أن أسفار العهد القديم المتأخرة (مثل إستير والجامعة) قد الفت بعد ذلك بوقت قصير، بنحو مائة عام، قبل حقبة حياة الحكماء المبكرين الذين ذكروا في المشنا، مثل شمعون العادل أو يوسي بن يوعيزر. وربما يكون قد سمع عن لفافات البحر الميت، وعرف أن لغتها قريبة جدا من لغة العهد القديم، على الرغم من الرأي الشائع في أن تاريخ تدوينها قد تم بعد زمن شمعون العادل. وفضلا عن ذلك، هناك نص في لفافات البحر الميت، كتب على قطعة نحاسية وبعبرية هي بالأحرى شبيهة بتلك التي استخدمها حكماء المشنا.

لقد نوقش هذا السؤال كثيرا، وقدمت حلول متنوعة. أحدها يقول أن لغة المشنا لم تكن موجودة أصلا: فالعبرية التوراتية (تبعا لهذا الرأي) قد ماتت قبل عهدهم، وكان الحكماء يتكلمون بالآرامية. وعندما أرادوا أن يكتبوا تعاليمهم بالعبرية، نجحوا في إنتاج مزيج من

---

* الآباء: تسمية تطلقها المصادر اليهودية على إبراهيم واسحق ويعقوب، ويشار إليهم على أنهم تلقوا الشريعة السماوية التي تدعو إلى التوحيد ووعد الله لشعبه المختار ونسله.

العبرية والآرامية شكلّ العبرية المشنائية! وقد ثبت خطأ هذا الرأي، والرأي الأكثر رجحانا الآن هو أن عبرية المشنا، أو كما دعيت أيضا بلغة (ص٣٩) الحكماء، كانت في الحقيقة حية، لغة مستخدمة في الحديث، وان الحكماء كانوا يكتبون بها مثلما كانوا يتحدثون بها. إن تغيير اللغة، على أية حال، لم يكن فجائيا كما يبدو لأول وهلة. لقد حصل هذا التغير الذي يبدو فجائيا خارجيا فقط، في لغة الكتابة، ومن ورائها كان هناك تغير تدريجي بطيء في لغة الحديث. وفي الحقيقة، كان الشعب في عهد المكابيين* ما يزال يستخدم عبرية العهد القديم في الكتابة، لكن أي خبير يتفحص الأسفار المتأخرة من العهد القديم يستطيع أن يرى بوضوح في أنها لم تعد بعد اللغة الطبيعية للأسفار التي كتبت في عهد الهيكل الأول. ويمكن أن يلاحظ أن مؤلفي الأسفار المتأخرة لم يكونوا متأكدين من استخدام اللغة بشكل صحيح، وحاولوا تقليد أسلوب كتاب عهد ملوك يهودا وإسرائيل، ولكن ليس بنجاح على الدوام. ولذلك فقد اعتقد انه على الرغم من أنهم قد تعلموا في مدرسة للكتابة بعبرية العهد القديم، فإن استخدامهم هذه الكتابة لم يكن مدعوما بكلام حي بشكل اللغة نفسها، بل أنهم استخدموا في حياتهم اليومية نوعا آخر من اللغة، هي العبرية المشنائية.

ويعتقد بعض اللغويين انه نتيجة للانقلاب الاجتماعي العام الذي بني على نفي نخبة من اليهود إلى بابل في ٥٩٨ و ٥٨٧ ق.م.، وعودتهم الجزئية وتكوين مجتمع يهودي جديد من عام ٥٣٨ فصاعدا، فإن تأثير تلك الأجزاء من الشعب التي تكلمت بلهجات متفرعة من

---

* المكابيون: نسبة إلى الاسم الآخر الذي أطلق على يهودا متتياهو، القائد العسكري للتمرد على سوريا عام ١٦٨ قبل الميلاد، وأتباعه أيضا.

العبرية التوراتية قد نما وأدى ذلك التشوش اللغوي اللاحق إلى ظهور لغة جديدة مشتركة في يهودا، أصبحت العبرية المشنائية. وقبل كل شيء، لم تعد هذه اللغة العامية، على أية حال، مناسبة لكتابة الكتب، وسعى الشعب إلى الاستمرار بالكتابة باللغة التي كانت مستخدمة قبل النفي. وقد استمروا على هذا المنوال نحو ثلاثة قرون، إلى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، عندما أصبح تأثير الطائفة الفريسية، التي ينتمي إليها الحكماء الأوائل وتطورت عن اليهودية الربانية، محسوسا. وكان الفريسيون قريبين من عامة الناس، يعلمونهم التوراة في محاضرات عامة. وبما أن تعليمهم كان شفويا، فإنهم استخدموا لغة الحديث حتى عندما كتبوا تعاليمهم أخيرا، لأنهم اعتقدوا بأهمية تدوين أقوالهم بالكلمات نفسها التي عبر بها مؤلفوها. وعندما ألف أولئك الحكماء أنفسهم الصلوات التي عدت أدبا، عبروا عنها على أية حال بمفردات مستقاة بشكل أساس من العهد القديم، وبأسلوب مشابه لأسلوب العهد القديم. وقد بقيت تلك المفردات حتى هذا اليوم تشكل أسلوب كتاب الصلوات.

ولذلك برزت لغة أدبية جديدة بين أوساط اليهود، العبرية المشنائية، التي استخدمت أيضا للتعبير عن مضامين جديدة، أي في مجال الهالاخاه والاگاداه (القوانين التشريعية والطقسية والمواعظ). وعلى الرغم من ذلك، لم تنس العبرية التوراتية إطلاقا، إذ كان كل يهودي يدرس العهد القديم. ويدور جميع الأدب الرباني حول التوراة، ولكن اليهود توقفوا عن تأليف كتب شبيهة بأسفار العهد القديم، وهذا التحديد ينطبق على أولئك الذين اتبعوا الحكماء. ولم يتردد يهود لفافات البحر الميت وطوائف أخرى في كتابة كتب كان الغرض منها ترك انطباع أسلوب الأسفار التوراتية، التي ادعي أن رجالا مثل

عزرا الكاتب، وانوخ ، أو آدم قد كتبها! وقد حفظت الكنائس المسيحية بعض هذه الكتب في تراجم أشير إليها كالابوكريفا أو بسيدوبيكرافا. وفي كهوف البحر الميت، حيث وجدت تلك اللفافات، وجدت بعض بقايا من تلك الكتب، ونستطيع من خلالها أن نتعرف على صورة لغتها الأصلية.

وبعد وقت قصير من بدء الشعب الكتابة بالعبرية المشنائية، وقعت الحروب القاسية التي خربت يهودا: حرب بومبي واحتلاله أورشليم، وحرب تيتوس وتدمير أورشليم، وحرب بركوخبا. وقد عنى هذا التدمير أيضا موت العبرية. وعلى حد علمنا، توقفت العبرية عن الاستخدام في الحديث بعد جيلين تقريبا، نحو ٢٠٠ للميلاد، بعد إكمال المشنا.

ولم ينته أدب الحكماء مع المشنا، بل ظهرت أجزاء كبيرة منه في التوسفتا وفي المداريش، وكتبت المداريش الأخيرة بعد عام ١٠٠٠ للميلاد. لذلك كان مصير العبرية المشنائية كمصير العبرية التوراتية، فقد استمرت في الكتابة لقرون عدة بعد توقف استخدامها في الحديث، تبعا للتقاليد ومن خلال تقليد الكتب السابقة.

وحلت الآرامية محل العبرية المشنائية في الحديث، وكانت أيضا لغة ثانية لليهود الفلسطينيين خلال حقبة الهيكل الثاني، وربما أيضا اللغة الرئيسة لطبقة اجتماعية معينة. واستخدمت في زمن المشنا ثلاث لغات في فلسطين: العبرية، والآرامية، واليونانية. وفي كهوف قرب عين جدي، وجدت رسائل بركوخبا مكتوبة بهذه اللغات الثلاث. إن تأثير الآرامية على العبرية المشنائية كبير، وساهمت اليونانية أيضا بعدد غير قليل من المفردات.

وبينما كانت العبرية ما تزال مستخدمة في الحديث، ألفت أيضا كتب في فلسطين باللغة الآرامية، مثل أجزاء من سفر دانيال، وعزرا ونحميا، وبعض من لفافات البحر الميت، وأقسام كبيرة من العهد القديم ترجمت إلى تلك اللغة، عرفت بالتركوم. وأصبحت الآرامية مع انحسار العبرية، دون شك، نوعا من "اللغة المقدسة"، وكتبت بها الأجزاء الأكثر أهمية من التلمودين البابلي والفلسطيني ومداريش مهمة أخرى. واعتاد يهود مصر وبلدان أخرى، بدورهم، ولمدة طويلة التحدث والكتابة باليونانية، وترجموا العهد القديم إلى تلك اللغة، وألفوا بها أعمالا مهمة.

وعلى أية حال، فإن نهاية العبرية لم يحن بعد عند نهاية هذه المرحلة.

٦- العبرية في الشتات

توقف استخدام العبرية في الحديث قرابة عام ٢٠٠ للميلاد (منتصف القرن الأخير من الألف الرابعة للخليقة)، ومنذ عام ١٨٨١ أصبحت العبرية ثانية لغة محكية بين اليهود. وبقيت اللغة العبرية لمدة ١٧٠٠ عام في الشتات مثلما كان اليهود في الشتات. إن اللغة، مثلها كمثل الأمة، كانت غير قادرة على التمتع بحياة اعتيادية، ولكنها بقيت مثل المجتمع اليهودي قوية وصحية على الرغم من ظروف حياتها المقيدة.

وقد بقيت العبرية خلال هذه الفترة الطويلة لغة للصلاة وقراءة العهد القديم. فاليهودية تلزم كل يهودي ذَكر أن يصلي ثلاث مرات في اليوم، ويقرأ كل أسبوع جزءا من الأسفار الخمسة، مرتين بالعبرية ومرة بالآرامية لترگوم أونكلوس،* وكان مألوفا في القرون الوسطى قراءته مع تفسير. وكان من المتوقع أن يقرأ كل يهودي الشريعة، التي تعني القراءة المنتظمة في المشنا، أو في المداريش، أو–إن كانت ثقافته عالية– في التلمود (الذي كتب معظمه باللغة الآرامية). وقد أدت هذه الواجبات الدينية إلى جعل كل يهودي بإمكانه القراءة والكتابة بالعبرية عمليا. وبينما كانت معرفة القراءة والكتابة نادرة بالأحرى في القرون الوسطى بين باقي الأمم، كما كانت نادرة حتى العصر الحديث بين معظم الشعوب الشرقية، كان اليهود مختلفين في هذا الشأن. فكثير منهم، وأحيانا أغلبهم، لم يكونوا يستطيعون قراءة

*** ترگوم اونكلوس: الترگوم كلمة أرامية معناها مترجم، وهو الترجمة الآرامية للكتاب المقدس. وسمي بهذا الاسم نسبة للقس اقويلا.**

لغة البلد الذي استقروا فيه، ولكنهم جميعا كانوا يستطيعون قراءة العبرية. وفضلا عن ذلك، كان جزء من السكان اليهود يستطيع التعبير عن أفكاره بالعبرية. أمّا أولئك الذين ملكوا الموهبة الشعرية فإنهم استطاعوا نظم قصائد بالعبرية. ولذلك أنتج أدب عبري واسع خلال فترة الشتات، وعموما فإنه أقل كمية من ناحية النشاط الأدبي لباقي الأمم في تلك الفترة. وقد وجد هذا الأدب قراءه بين الجمهور اليهودي، وتنقلت الكتب من يد إلى أخرى ومن بلد إلى آخر.

هذا لا يعني أن جميع اليهود الذين كتبوا، كتبوا بالعبرية، ففي فترة المشنا كان هناك أدب يهودي يوناني، وفي القرون الوسطى أدب يهودي مهم بالعربية. وفي القرون الحديثة، كانت هناك آداب يهودية بلغات البلدان التي عاش اليهود فيها، وبشكل خاص بالإيطالية والألمانية، وأخيرا بالإنكليزية. ويمكننا القول عموما، إنّ تلك الأعمال التي ترجمت إلى العبرية هي وحدها التي بقيت على مر القرون الإرث المشترك لليهود.

إن الاستثناء الوحيد لهذا التعميم هو اللغة الآرامية. فهذه اللغة تشبه العبرية إلى حد كبير، والشخص الذي يعرف العبرية يستطيع بجهد بسيط أن يتعلمها ويقرأها.* وكتبت أجزاء من الأسفار التوراتية عزرا ودانيال باللغة الآرامية، وترجم معظم العهد القديم إليها فيما بعد، وما تزال هذه الترگومات تدرس في المجتمع اليهودي التقليدي. وكتب بالآرامية أيضا التلمودان البابلي والفلسطيني، وكذلك الزوهر، العمل الرئيس للقبّالا. إنها لغة الصلوات الشعبية، ولاسيما القديش، وصلوات وقصائد دينية كتبت بها أيضا خلال الأزمنة الحديثة نسبيا، مثل "يا

*** قارن ما أبداه الكاتب عن اللغة الآرامية واختلافها الكبير عن العبرية في أوجه لغوية كثيرة في الصفحة ١٢ أعلاه من النص الأصلي!**

ربّون" للرباني إسرائيل نجّارا (١٥٤٢- ١٦١٩)، الذي ضمّ إلى أناشيد السبت. إنّ الآرامية هي لغة ثانية لليهود، والكتب التي كتبت بها هي ليست أقل شعبية من تلك التي كتبت بالعبرية. وتتضمن المؤلفات الآرامية للقرون الوسطى، على أية حال، أما رحلات أدبية (مثل تلك التي لنجّارا)، أو أعمال عبر عنها بالآرامية لأسباب خاصة، مثل الزوهر. وعندما بدأ اليهود الكتابة بطبيعية، استخدموا العبرية على الرغم من أن هذه العبرية قد امتزجت مع الآرامية التلمودية.

إنّ مكانة العبرية بين اليهود في القرون الوسطى مثل اللاتينية بين المسيحيين في غرب أوربا، واليونانية بين المسيحيين الشرقيين، والعربية الكلاسيكية بين المسلمين، أو السنسكريتية في الهند في القرون الوسطى. وقد خدمت كل واحدة من هذه اللغات الأغراض الكتابية، وليس في الحديث اليومي. ولم يكن شائعا، من ناحية أخرى، استخدام اللغة المحكية في الكتابة (باستثناء بعض البلدان مثل إنكلترا، حيث كانت اللغة المحكية تستخدم إلى جانب إحدى اللغات الأدبية العامة). لذلك كان معتادا بين اليهود أيضا الكتابة بالعبرية، ولكن الحديث بلغات مختلفة تبعا للبلد الذي يعيشون فيه، ولم يقوموا بأية محاولة لإدخال اللاتينية أو العربية الكلاسيكية إلى الحديث في الشارع أو العائلة، ومن هنا لم يجد يهود تلك المدة كفايتهم، ولم يحسوا بأية ضرورة للحديث بها. وفي الحقيقة، فإنهم تكلموا بالعبرية عرضيا ولم تدفعهم للحديث بها طوال الوقت. لقد بقيت "اللغة المقدسة" ولغة الحديث اليومي منفصلتين.

إن مثل هذا الوضع الذي تتواجد فيه لغتان متميزتان مستخدمتان في آن واحد لأغراض مختلفة في حياة معينة، يدعى في البحث الحديث Diglosia. وما زالت هذه الظاهرة واسعة الانتشار، وقد بحثت بشكل عميق في العصر الحديث.

٧- لغة الشعر

استمرت اللغة العبرية بالازدهار في الأدب بدون انقطـــاع، حتـــى عند توقف استخدامها في الحديث نحو ٢٠٠ للميلاد. وقد بين باحـــث من القدس في عام ١٩٥٣ وهو الأستاذ هـ. شـــيرمان مـــن الجامعـــة العبرية، فـــي أن نـــوع الـــشعر العبـــري الـــذي نـــدعوه بـــالبيوط (الأشعار الدينية) بدأ في القرن الثالث في فلسطين. وقد اعتقد سابقا أن البيطانيم المبكرين (مؤلفو البيوطيم) عاشوا قبل ذلك بوقـــت طويـــل. وأرّخ العالم الكبير ل. زونز، الذي كتب قبل ١٠٠ عام كتـــابين عـــن هذا الشعر اللذين ما يزالان حتى الآن من أهم الكتب، هـــذه الأشـــعار الدينية إلى القرن الثامن، واعتقد أن مركزها الأصلي هـــو ايطاليـــا. وبحسب وجهة نظر شيرمان، فإن أهم مؤلفي تلك الأشعار هما يوسي بن يوسي وينّاي وقالير، وكانا معاصرين للتنائيم المتأخرين.

إن أي شخص يقرأ في أيام الهبة (العام الجديد ويوم الغفران) فـــي المحزور الاشكنازي (كتاب صلاة العيد)، عليـــه أن يعـــرف البيـــوط جيدا، ذلك لان عليه البقاء لمدة طويلة عند وقوف الحزّان (المرتـــل) والحشد يرتل إحدى هذه الأشعار أمام تابوت العهد المفتوح. وسيعجب أولئك الذين يعيرون اهتمامهم إلى الصلوات في محزورهم كم كانـــت لغة الكثير من هذه الأناشيد صعبة؛ فليس من السهل غالبا فهم القصائد بسبب التلميحات التوراتية والتفسيرات المدراشية الكثيرة فيها، ولنأخذ على سبيل المثال ترتيلا لا يتضمن عمليا أية صعوبة لغوية:

الاثنان المكتوبان على جانبين هما أفضل من اثنين
مثل شاهدين اثنين من واحد وليس من اثنين
معروف أن كتابتهن خمس خمس

ليخطب خمسة إلى خمس لئلا يحكمهم خمسة

يعود هذا البيوط إلى ينّاي، ثاني أعظم البيطانيم. وعند قراءتنا له نحس وكأننا نفك جزءا من لغز في صحيفة. وفي الحقيقة من السهل فهم هذا البيوط إذا تذكرنا فقط:

١. أن لوحي الشريعة كتبا على جانبين، الأمامي والخلفي (الخروج ٣٢: ١٥)، ولذلك فان الإشارة هنا هي إلى ألواح موسى.

٢. دعيت في البيت نفسه "ألواح شهادة"، ولذلك فإنها جيدة، مثل شاهدين هما أفضل من واحد لان شهادة شاهد واحد هي غير مقبولة في الشريعة اليهودية.

٣. وعلى أية حال، فان الكلمة "واحد" لها هنا معنيان؛ فهي تعني أيضا أن الألواح قد جاءت من الإله الواحد، وانه ليس هناك إلهان (اله الخير واله الشر)، كما آمن الطائفيون في الأزمنة التنائية.*

٤. وتبعا لرأي الرباني حنينا بن گمليئيل، الذي كان مقبولا شعبيا (التلمود الفلسطيني،.شقاليم ٦)، كتبت خمس من الوصايا العشر على وجه واحد من اللوح، والخمس الأخرى على الوجه الآخر، وهذا ملمح به "خمس خمس".

٥. إن طريقة كتابة هذه الوصايا، على أية حال، لها معنى رمزي: ليخطب (يربط إلى الأبد، انظر هوشع ٢: ٢١) أولئك الذين قيل عنهم "وخرج بنو إسرائيل من ارض مصر مجهزين" (الخروج ١٣: ١٨) إلى أسفار الشريعة الخمسة. ويناقش المدراش وسائل عدة

---

* **التنّائيم: مفردها تنّا وهي كلمة آرامية وردت في المشنا وغيرها بمعنى معلم، وانتشر استخدامها خلال القرنين الميلاديين الأولين.**

يمكن أن يكون معنى "حموشيم" (مجهزين) مشتق من حمشّه (خمسة)، على الرغم من حقيقة معناها المحتمل "مجهز" أو "مسلح".

٦. وفي مقابل أسفار الشريعة المقدسة الخمسة، فإن هگادة عيد الفصح تذكر خمسة أوبئة سلطت على المصريين لأن الرباني عقيفا يقول هناك: "كل وباء جلبه الله على المصريين في مصر تضمّن خمسة أوبئة" (مخيلتا* الرباني يشمعئيل، بشلح ٦، وأيضا في أماكن أخرى)، وقد عدّت هذه الأوبئة في المعتقد الشعبي ملائكة الدمار الخمسة.

وليس هناك ما يثير دهشتنا إن اعتقد بعض مؤرخي اليهود للقرون الوسطى في أن هذه الأشعار قد كتبت أيام الاضطهادات الدينية للأباطرة البيزنطيين، حيث حرّم تعليم الشريعة الشفوية (المشنا والتلمود)، ولكنهم سمحوا بإقامة الصلاة. ولهذا قدم مؤلفو الأشعار الدينية الأمور الشريعية والمدراشية إلى الصلوات، وبهذه الطريقة تعلم حشد المصلين الشريعة الشفوية سرا على الرغم من التحريم. صحيح أن قسما كبيرا معروفا من المداريش قد ضمّن في هذه الأشعار، لكن حصنة الشريعة كانت بسيطة. ولو كان لمؤلفي الأشعار الدينية نية مسبقة بتوجيه الربانيين لتعليم الشريعة، لكانوا قد أكدوا على الشريعة. وعلى أية حال، فإن المثال الذي ناقشناه يثبت أن على الدارس أن يعرف مضمون المداريش قبل أن يكون قادرا على فهم الأشعار، وليس فهم الأشعار الدينية من خلال الأشعار الدينية.

---

* مخيلتا: كلمة أرامية تعني القياس، وهو اسم استخدم في العصور القديمة لبعض الأعمال الإرشادية، وأحيانا لمقالات عن المشنا والتلمود.

وإذا افترضنا أن غرض مؤلفي الأشعار الدينية كان تعليم الشعب، فكيف شرعوا في ذلك؟ وبدون شك كانوا سيصوغون تعليمهم بأسلوب بسيط، سهل الفهم على كل شخص ويسهل إدراك مضمونه. ولكن الحال لم يكن كذلك؛ فبعيدا عن التلميحات المتضمنة، استخدم مؤلفو الأشعار الدينية على الأغلب مفردات صعبة، وكانوا غارقين في مفردات توراتية نادرة، واستخدموا في قصائدهم كلمات آرامية، وفي غضون ذلك غالبا ما ابتدعوا الآلاف من الكلمات الجديدة. وقد عملوا ذلك من خلال اختصار كلمات قائمة، مثل *tefesh* من *tipshut* (غباوة)، و *bukh* من *mevukhah* (ارتباك)، و *yof* من *yofi* (جمال)، و *ev* من *ta`avah* (شهوة)؛ وبإطالة كلمات، مثل *pahadon* من *pahad* (خوف)، أو *miflal* من *tefillah* (صلاة). وقد صاغوا أفعالا بحرية من أسماء أو كلمات أخرى، مثل *libe* (يستأسد) من *lavi* (أسد)، hitrafsed (أصبح مسطحا) من rafsodah (طغوا)، و *bil`ed* (للقول أن لا واحد إلا (*bil`ade*) إياه (الله). واختزلوا أيضا أفعالا مثل bat من *hibbit* (نظر/ تطلع)، و *gash* من *niggash* (اقترب/ تقدم). وهناك بعض الأشعار الدينية، وخاصة المتأخرة منها، تبدو وكأنها معبرة بلغات أخرى وليس العبرية.

ومنذ أن استحسن الجمهور هذه الأشعار الدينية، فإنها جلبت الشهرة لناظميها، وأصبحت جزءا من الصلاة للأجيال اللاحقة إلى الوقت الحاضر، ولا يمكننا الآن إلا الافتراض أن جمهور ذلك الوقت قد تمتع بهذه الألعاب البهلوانية اللغوية. وفي الحقيقة، نستطيع بسهولة الآن أن نجمع ابتكارات لغوية مشابهة وبأعداد متساوية من أعمال شعراء إسرائيليين معاصرين. لقد ابتكر مؤلفو الأشعار الدينية كلمات

جديدة لأنهم شعروا أن اللغة الموجودة كانت غير كافية للتعبير عمّا أرادوا قوله، ومن خلال خرق حدود اللغة يكون باستطاعتهم التعبير عن أنفسهم بجدارة، وفي جميع المجالات على غرار الشعراء الحديثين. ويمكن أن نشبه التلميحات المعقدة في المداريش بالتشبيهات الجريئة والمعقدة في الشعر الحديث.

ولم تستغل هذه الكنوز إلى الآن في أغناء العبرية الحالية إلا بشكل ضئيل جدا. وعلى الرغم من ذلك، ربما نذكر بعض الكلمات التي استوعبت من الأشعار الدينية يل وأصبحت مستخدمة الآن: *veteq* التي تعني الآن (عراقة/ أقدميه) في الأشعار الدينية كانت تعني (عمر عظيم) من *vatiq* "قديم")؛ و *nofish* (استجمام) من *hinafesh* (يأخذ استراحة قصيرة)؛ و *ihhel* (تمنّى) من *ahalay* (تمنّي)؛ و *bisses* (أسس) من الاسم اليوناني *basis* (قاعدة)؛ و *pi`anah* (حلّ رموزا، ليخلص) من الاسم الذي أطلقه المصريون، حسبما ورد في التكوين ٤١: ٤٥، على يوسف، يوسف مخلص العالم *Tzofnat Paaneah*. ويوضح المدراش (تكوين ربّا xc)، مستخدما الأسلوب المذكور أعلاه في اختزال أفعال، على إنها مؤلفة من ثلاث كلمات:

١- *Tzofnat* tzefunot = (أمور مخفية).

٢- *Pa`* = *hofia`* ألقى ضوءا على (الأمور الخفية).

٣- *neah* = *heniah* أراح (عقول الناس).

ومن هاتين الكلمتين *Pa`* و *neah* من المدراش، صاغ مؤلفو الأناشيد فعلا واحدا. وفي الحقيقة، لم ندرك بعد الأصل المدراشي المعقد للكلمة عندما نستخدمها لنقول أن الدبلوماسية الإسرائيلية حللت نوايا السادات من خطبه، أو أن شخصا ما قد "حل" شفرة.

وقد استمر نظم الأشعار الدينية خارج فلسطين أيضا إلى القرن الحادي عشر للميلاد. وعرض مؤلفو الأشعار المتأخرين قصائدهم الأولى بلغة معقدة ومليئة بالتلميحات. وكان أكثر هؤلاء المؤلفين الغامضين سعديا گاؤون* الذي ولد في مصر نحو ٨٨٠، وعاش في فلسطين والعراق. وفي البلد الأخير كان مديرا لمثيبة سورا،** ولذلك كان لقبه گاؤونا، مختصر مدير مثيبة "فخر يعقوب"، وتوفي في عام ٩٤٢. وقد ضمنت كثير من أشعاره الدينية في كتاب صلواته الذي يعد أحد أهم المصادر في تاريخ الطقوس اليهودية. وفضلا عن أشعاره أو قصائده الدينية، كتب سعديا أعمالا نثرية وشعرية (بزي عربي) غالبا وبعبرية توراتية نقية. ولم يزود نتاجاته بالحركات فحسب، وإنما أيضا بنبرات موسيقية توراتية.

ويرتبط سبب هذا الاختراع بتقليد النماذج الأدبية العربية. إن العرب الذين حكموا المنطقة منذ عام ٦٣٠، وكانوا فخورين بإسراف بشعرهم وفصاحة لغتهم وقاموا بتهذيبها بشكل مواظب. وكانت اللغة الوحيدة، للعربي المثقف، التي تستحق تسميتها عربية جيدة هي لغة

---

* گاؤون: ومعناها عبقري، أطلقت على علماء اليهود الكبار في بابل في الحقبة اللاحقة للتلمود ما بين القرنين السادس والحادي عشر، لاسيما على رؤساء مثيبة بابل وبغداد، ومن أهمهم سعديا.

** مثيبة سورا: مدرسة يهودية أكاديمية أسست في القرن الثالث الميلادي في بابل، وبقيت فعالة مع بعض الانقطاع لثمانية قرون، وازدهرت أيام سعديا گاؤون، وأخيرا انتقلت إلى بغداد واندمجت في بعض المثيبات المنافسة.

بدو الصحراء التي سبقت حلول الدين الإسلامي. وفي ضـــوء عبـــادة العرب للغتهم، بدأ اليهود أيضا الاهتمـــام بلغـــتهم القديمـــة، العبريـــة التوراتية، كأنموذج للكتابة الفنية. وكانت هناك بعض المحاولات للقيام بذلك قبل سعديا، ولكنه يعد المعبد لطريق الكتابة بالعبرية التوراتيـــة، وألّف معجما ونحوا لمساعدة أولئك الذين سعوا للكتابة بهذه اللغة.

وبعد سعديا بوقت قصير، نجح الـــشعب أيـــضا بتكييـــف الأوزان العربية المعقدة إلى العبرية. وكان هـــذا العمـــل صـــعبا لأن الـــوزن الشعري العربي مؤسس علـــى الفـــرق بـــين الحركـــات الطويلـــة والقصيرة، بينما لم يكن اليهود في ذلك الوقت بعد يميزون في اللفـــظ العبري بين تلك الحركات وأيهما طويل وأيهما قـــصير. وكـــان مـــن الضروري استخدام السكون المتحرك والخواطف كبـــديل للحركـــات العربية القصيرة.

وعند حلول النصف الثاني من القـــرن العاشـــر، أصـــبح الـــشعر بالأوزان العربية والعبرية التوراتية شائعا بين يهود الأوطان الناطقـــة بالعربية: العراق، وسوريا، ومصر، وشمال أفريقيا، لاسيما في اسبانيا الإسلامية التي أصبحت مركزا رئيسا لهذا الـــشعر الجديـــد. وتبنـــت القصائد العبرية أسلوب الشعر العربي، حيث كانت المضامين: قصائد الخمر، وقصائد الحب، وقصائد فـــي الـــصداقة، والـــصيد وقـــصائد الحرب. وملكت العبرية بذلك، وللمرة الأولى منذ الأيـــام التوراتيـــة، شعرا دنيويا. حقا إن القصائد الدينية قد استمرت لأنها كانـــت تكتـــب بأسلوب الأشعار الدينية، ولكن الزي العربي أخذ يتغلغل بمرور الزمن إلى هذا النوع، وبرع شعراء مثل سليمان بن گبيرول، وموســـى بـــن عزرا ويهودا اللاوي سوية في الـــشعر الـــديني والـــدنيوي. وخلـــت القصائد الدينية أخيرا محل المحـــزور الـــسفارادي، وتكلـــم الـــشاعر

أبراهام بن عزرا باستخفاف عن اللغة التي استخدمها مؤلفو الأشعار الدينية معتبرا اختراعاتهم في مجال المفردات مثيرة.

وقد نظم الشعراء العبريون الاسبانيون قصائد لجمهور ذي ذوق رفيع جدا، على الرغم من محدودية عددها. وقام أيضا نقد أدبي، ودقق النحويون المفردات بانتباه كبير لئلا ينتهك أي شاعر قوانين النحو التوراتي. وكان الوفاء إلى العبرية التوراتية إلى درجة أن الشعراء امتنعوا عن استخدام كلمات في أشكال لم تكن موجودة في العهد القديم (مثل جمع الاسم، فقط في حالة وجود مفرده). وأدى الميل إلى استغلال كنوز اللغة العبرية التوراتية والبقاء مخلصين بالطبع إلى سماتها، مع أولئك الشعراء البارزين الذين امتلكوا موهبة شعرية وغنى الأفكار، إلى اهتمام عميق باللغة العبرية وبحثها في ذات الوقت علميا وكشف إمكانيات تعابيرها الموروثة.

وفي الوقت ذاته الذي تطور فيه الشعر العبري التوراتي الغني جدا بالأساليب وبوسائل التعبير في اسبانيا، تطورت الأشعار الدينية بين يهود ألمانيا وفرنسا إلى شعر شعبي خال من أغلب الابتكارات اللغوية لمؤلفي الأشعار الدينية، وبكلمات قليلة وبسيطة وبأوزان شعرية بسيطة نجحت في التعبير عن مشاعر عميقة. وكان راشي شاعرا رفيعا فضلا عن شعراء آخرين وقد وجد نتاج هؤلاء الشعراء الاشكنازيم مكانا في المحزور الاشكنازي.

لقد كانت لغة هذه القصائد على الأغلب مشنائية خالصة. وفقط في القرن الثالث عشر بدأ اليهود الألمان والفرنسيون استخدام الأوزان الإسبانية.

٨- النثر العبري الوسيط

في عهد كتاب الأشعار الدينية (البيطانيم)، ومع نهاية حقبة جمـــع التلمودين الفلسطيني والبابلي، بدأ استخدام العبرية لغة حية في الكتابة بالانتشار في الشتات الغربي: في شمال أفريقيا، واسبانيا، وايطاليـــا، وفرنسا، وغرب ألمانيا. ويمكننا القول إن الروح القومية التي غمرت كتاب الأشعار الدينية كانت العنصر الرئيس فـــي إعـــادة الاســـتخدام الفعال للغة القومية. كما إن ارتقاء النشاط التجاري على طـــول خـــط التجارة الفرنسي-الايطالي-المصري-الهندي، الذي وصل ذروته في النصف الثاني من الألفية الأولى للميلاد، قد ساهم على الأغلـــب فـــي هذه النهضة أيضا. ولم ترفـــع هـــذه التجـــارة المـــستوى ألمعاشـــي للمجتمعات اليهودية وتمنحهم الرغبة بالنشاط الثقافي فحـــسب، وإنمـــا سهلت أيضا حركة الأفكار، والكتب، ومبعوثي المثيبات علـــى طـــول الشتات.

وقد استمرت هذه العملية لعدة قرون. ولأول مرة ندرك نهـــوض الاهتمام بالعبرية في البلدان القريبة من فلسطين، وأثرت أيـــضا فـــي المجتمعات اليهودية خلال القرن العاشر، في اســـبانيا وفـــي الـــدول الوريثة للإمبراطورية الإفرنجية في شمال فرنسا وغرب ألمانيا. وقد أصبحت هاتان المنطقتان في الحال مراكز يهودية مهمة حقا.

ونتيجة لذلك انتشرت، بطبيعة الحال، العبرية المـــشنائية وعبريـــة الأشعار الدينية ما بين ٥٠٠ و ٩٠٠ للميلاد. وانتـــشر هـــذا النـــوع اللغوي أيضا في اسبانيا، وفيما بعد حلت محله العبريـــة التوراتيـــة "الحديثة" التي نهضت من خلال جهود الرباني سعديا گـــاؤون. ولـــم

يصل هذا التوجه الجديد إلى ألمانيا، منطقة الإمبراطورية الإفرنجية السابقة، لأن الاتصالات بين اليهود الألمان وبين أولئك المسلمين في الشرق كانت ضعيفة في ذلك الوقت. ولذلك فإن معرفة يهود أوربا المسيحية بالانجازات الثقافية لإخوانهم في الدين في البلدان المسيحية لأكثر من مائتي سنة (٩٠٠- ١١٥٠) كانت ضعيفة وبقيت وراء الأحداث، وأحيانا لأجيال عدة. وقد تغلغل الشعر العبري المنظوم وفق الأوزان العربية إلى ألمانيا بجيلين بعد راشي، وأصبح علم النحو، الذي وضع في اسبانيا، معروفا لهم فيما بعد بفترة طويلة، ولكن الأهم من كل شيء، هو أن يهود شمال أوربا الغربية قد بدأوا يسمعون عن تقارير مهمة عن العلوم والفلسفة التي نبغ فيهما إخوانهم في البلدان الناطقة بالعربية.

لقد كان ازدهار العلوم بين اليهود في البلدان الإسلامية مرتبطا باتخاذهم العربية لغة كتابة أساسية (مثلما اتخذها المسيحيون في تلك البلدان). ويبدو أن قسما مهما من الطبقة اليهودية المتوسطة قد استخدم اللغة العربية مع بداية أيام سعديا گاؤون (٨٨٢- ٩٤٢)، ولذلك وجد سعديا ضرورة ترجمة أجزاء من العهد القديم إلى العربية. وما زال اليهود اليمنيون يستخدمون ترجمتهم إلى جانب الترگوم الآرامي. وكانت لغة التجارة بين اليهود هي العربية المكتوبة بحروف عبرية كما هو واضح من مئات الرسائل المحفوظة في الگينيزا (حجرة لخزن المواد غير المستعملة والمكتوبة بالعبرية) للكنيس القرائي الكبير في القاهرة. وقد فتحت أمام تضلع أولئك اليهود باللغة العربية كنوز العلم اليوناني الذي ترجم إلى العربية وبدأوا هم أنفسهم بالكتابة عن تلك الموضوعات واستخدام الفلسفة في دعم الدين اليهودي، ابتداء بسعديا في كتابه "معتقدات وأراء"، وانتهاء بكتاب

ميمونيديس الضخم "دليل الحائرين". وهكذا فان الأوساط اليهودية التي طورت شعرا بالعبرية التوراتية لم تستخدم العبرية في الكتابة النثرية. ولهذا السبب فإنهم شعروا أيضا أن لا حاجة لتطوير وسائل التعبير للغة العبرية من أجل تمكينها تناول الموضوعات الثقافية لعصرهم. على العكس، إن عدم قدرة العبرية (التوراتية) للتعبير عن أفكار علمية، أو كما صاغوها "عدم كفاية اللغة"، كان بمثابة عذر لعدم رغبتهم في هجر العربية.

وبينما أنتج يهود شمال إفريقيا واسبانيا نثرا عربيا مهما، أبدع يهود ألمانيا أدبا نثريا خاصا بهم، بالعبرية بشكل تام. وتناول هذا الأدب التفسير التوراتي (راشي) وموضوعات دينية وأخلاقية، وكان أدبا شعبيا في طبيعته. وما زال معظمه غير منشور، وأصبحنا خلال الجيل الأخير فقط على إطلاع تام بعظمة فكره.

وكانت لغة ذلك الأدب استمرارا لأدب المشنا والمدراش، ممزوجة ببعض الكلمات من الأشعار الدينية (البيوطيم)، ومن كتاب الصلاة، والتوراة. وقد عرضت هذه اللغة بشكل جيد في كتابات راشي، وفي الأسلوب الغني الزاخر بقوة التعبير، ولكن عرضه النموذجي موجود "كتاب التقي"، وهو مجموعة من القصص الأخلاقية ألفت في جنوب ألمانيا نحو عام ١٢٠٠ للميلاد. وتتسم لغة ذلك الكتاب بعدم دقتها النحوية، وتأثرها الكبير باللغة الألمانية المحلية التي تكلم بها اليهود، وفي الوقت ذاته تتسم بقوة تعبيرية عظيمة إلى درجة أنها امتلكت نوعا من الجمال.. إنها تسبغنا بطابع الشعبية، وبعبرية مفعمة بالحياة، وهي في طريقها إلى التبلور في لغة جديدة، كما هو حال اللغات الأوربية في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من فقدان الاتصال بين يهود أوربا المسيحية وبين يهود إسبانيا، فقد بدأت بعض الاتصالات الثقافية نحو عام ١١٠٠، نتيجة لاحتلال دول مسيحية جزءا من اسبانيا، وربما أيضا بفضل الاهتمام الذي أبداه بعض الباحثين المسيحيين بالكنوز العلمية المحفوظة في الكتب العربية في ذلك البلد. وقد ترجم أولئك الباحثون هذه الكتب إلى اللاتينية بمساعدة يهود زودوهم بترجمة شفوية بالاسبانية، والكتلانية، أو البروفنسية. وكان أحد هؤلاء المترجمين اليهود أبراهام بر حيّا سافوردا ("مدير شرطة") من برشلونة، كتب بالعبرية، للإجابة على طلبات من يهود جنوب فرنسا، عددا من الكتب في الرياضيات، والفلسفة، وموضوعات أخرى، وحتى أيضا موسوعة للعلوم. وقد استخدم العبرية المشنائية التي استخدمها يهود جنوب فرنسا في الكتابة، وليس العبرية التوراتية المألوفة في وطنه الأم اسبانيا. ولما كان متحدثا للعربية، ومعتادا على الكتابة بها، يمكن الإحساس بتأثيرها في أسلوبه. وقد توفي قبل عام ١١٣٦. وتجول معاصره، أبراهام بن عزرا (١٠٩٢- ١١٦٧)، في أنحاء أوربا، وحيثما ذهب نشر المعرفة عن النحو العبري، والتفسير التوراتي العلمي، والفلسفة، والرياضيات، بأسلوب رائع، ولكن بالعبرية المشنائية لقرائه.

وفي عام ١١٤٨ طرد اليهود من اسبانيا الإسلامية. ونتيجة لذلك ذهبت عائلة ميمونيديس إلى شمال أفريقيا، وكذلك فعلت الكثير من العوائل، لكن بعضها هاجر إلى جنوب فرنسا حيث استقبلهم اليهود المحليون بحماس وخاصة علماؤهم، لاسيما أن رغبتهم للعلوم اليونانية-العربية كانت شديدة. وقد برز هنا بين الرجال الأسبان من شرع بترجمة جميع الكتب إلى العبرية. وكان الأول يهودا بن تبون،

"أبو المترجمين"، وترجم بحيا بن يقودا أول كتاب وهو بحث فلسفي صوفي "واجبات القلوب". وفي خلال حقبة أمدها ٢٥٠ عاما قام أكثر من ١٦٠ مترجما مختلفا بترجمة أكثر من ألف كتاب، إلى أن استهلك القارئ العبري أخيرا الكمية الأكبر من الكتب المتوفرة بين جميع شعوب أوربا.

وفي إطار هذا النشاط الترجمي، غير نوع العبرية المشنائية صورته، وأخذت التراجم تبني جملها على نمط بناء الجملة العربية من خلال استغلال بعض الإمكانيات المعينة للنحو العبري الموجودة سابقا، ولكنها كانت نادرة الاستعمال، ولذلك بدت عبريتهم غريبة، على الرغم من أنها كانت تحيد في أمثلة نادرة عن القواعد النحوية المألوفة. وقد ابتدع المترجمون آلاف الكلمات، جزئيا يتطلبها المصطلح العلمي، وجزئيا تبعا لتقليد الأساليب العربية في التعبير. وأخيرا أيضا اتخذ مؤلفو أعمال عبرية أصلية هذا الأسلوب الذي يبدو لنا غالبا لغة أجنبية. وعلى أية حال، فإن أي شخص يرغب الإحاطة بفكر يهودا اللاوي أو ميمونيديس فإن عليه أن يكون معتادا على هذا النوع من اللغة.

وفي أعقاب هذه التراجم، بدأت تظهر أعمال فلسفية أصلية كتبها يهود أسبان ويهود آخرون. وكتب ميمونيديس ما بين ١١٧٠- ١١٨٠ في مصر مجموعة قوانينه الهالاخية الكبيرة "هيّد هيحزاقاه" (اليد القوية) بالعبرية المبنية على المشنا، قدمها بفصل فلسفي يبدو فيه تأثير أسلوب المترجمين واضحا. وكتب ابنه أبراهام (١١٨٦- ١٢٣٧) بحثا أخلاقيا- فلسفيا عاما بالعربية. وكتب الفلاسفة الذين جاؤوا بعده في جنوب فرنسا وفي ايطاليا، أمثال يعقوب أناتولي (١١٤٦- ١١٩٤)، ويوسف البو (١٣٨٠- ١٤٣٥) بالعبرية بشكل كامل، على

الرغم من أنها كانت تشبه على الأغلب لغة التراجم إلى درجة يصعب تمييزها عنها.

وجنبا إلى جنب هذه الطريقة للكتابة بالعبرية للأغراض العلمية، استمر المهاجرون الاسبانيون في فرنسا وفي ايطاليا في نظم الشعر والنثر الفنيين بعبرية توراتية خالصة. ومن أهم الإنجازات المؤثرة ببراعة في مجال التأليف باللغة التوراتية في تلك الحقبة هو ما كتبه مهاجر في جنوب فرنسا، الذي عمل أيضا في مجال الترجمة، هو كتاب "تحكموني" الذي كتبه يهودا الحريزي (١١٧٠- ١٢٣٠). وقد اكتسب هذا الكتاب أيضا مريدين عديدين من بين اليهود المحليين. كما تغلغلت عادة نظم الشعر بالأوزان العربية وبالعبرية التوراتية إلى ألمانيا في هذه الحقبة.

ولأول مرة منذ توقف العبرية من أن تكون لغة للحديث، بدأ المجتمع اليهودي ذاته في الوقت نفسه نوعين من العبرية: العبرية المشنائية للنثر، والعبرية التوراتية للشعر. وبقي هذا التقليد منذ تأسيسه ساريا وكانت له نتائج مهمة في تاريخ العبرية.

٩- الحقبة السابقة للحديثة

في فصلنا السابق عن العبرية في "الشتات" علقنا على التشابه الملفت للنظر بين استخدام يهود القرون الوسطى للغة العبرية لغة للكتابة واستخدام لغات كلاسيكية بصفة لغات كتابة لا تستخدمها شعوب أخرى في الحديث في الوقت ذاته. وقد تغيرت هذه الحالة التي تبدو مميزة للمجتمع الوسيط، تدريجيا بين شعوب أوربا من القرن الرابع عشر فصاعدا. وأخذت اللاتينية بالانحسار باطراد من بلد إلى آخر، وبتقدم اللغة المحكية إلى مجالات جديدة في الاستخدام. وبينما أصبحت لغة الكتابة لغة رسمية، مرّت اللغات المحكية بتغيير: فقد استوعبت آلاف الكلمات اللاتينية وترجمت بعضها ترجمة دقيقة، وتأثر بناء جملها أيضا بعمق ببناء الجمل الطويلة اللاتينية التي شاعت في العصور الوسطى. وقد بدأت اللغة المحكية بالتقدم في الغرب، في انكلترا وفرنسا، ومن هناك انتشرت نحو الشرق والجنوب، إلى أن وصلت البلقان في القرن التاسع عشر. وهناك علامات كثيرة تدل على العلاقة الوطيدة لهذا التغير في العادات اللغوية بارتقاء الدول القومية وبدايات الروح القومية بمعناها الحديث، وأيضا بنشوء الاقتصاد الصناعي. وهذا يعود إلى سبب عقلاني ذلك أن الدولة الصناعية الحديثة كانت بحاجة إلى وسيلة اتصال ثابتة وفعالة مع مواطنيها، وان معرفة القراءة والكتابة بشكل عام كانا شرطين ضروريين للصناعة، والجيش، والبيروقراطية الحكومية المتنوعة. ومن أجل انجاز ذلك، برز ترابط شديد بين القومية واللغة، وأصبحت

اللغة القومية عنصرا مركزيا في نضال الأمم الأوربية من اجل استقلالها القومي.

ويمكننا أيضا أن نميز مراحل معينة في هذه العملية التي حققت اللغات القومية من خلالها هويات منفصلة، وظهرت هذه المراحل في بلدان شتى وفي أزمنة مختلفة. وإحدى هذه المراحل هي الانفجار الهائل لطاقة خلاقة عنيفة، تمثل نوعا من الباروكية اللغوية. وتمثل ذلك بشكل واضح في كتابات رابيليا في فرنسا وبقدر أقل في كتابات شكسبير ومعاصريه في انكلترا. وتبعت هذه المرحلة في كل مكان الكلاسيكية التي تقيدت بشكل دقيق بالمفردات والأبنية اللغوية.

ولم يكن لليهود نصيب في هذه الثورة اللغوية لأسباب كثيرة. أولا: لم يكن هناك يهودا في ذات البلدان التي بدأت هذه العملية في ذلك الوقت؛ فقد طردوا منها في القرن الثالث عشر. كما إن معظمهم عاشوا في بلدان وصلتها موجة القومية وفكرة اللغة القومية متأخرة. وحتى بعد وصولها لم يكيف اليهود جيدا الفكرة القومية لأغراضهم الخاصة، لأنهم كانوا أقلية مبعثرة في أنحاء المنطقة، ودون أي أمل لإقامة دولة خاصة بهم. أمّا فيما يتعلق بتحول اليهود من لغتهم العبرية المكتوبة إلى لغات محلية، فكان من شأنه أن يؤدي إلى فقدان الهوية القومية اليهودية والى إزالة، بحكم الظروف في بلدان غرب أوربا ووسطها، الحاجز الثقافي الرئيس بين اليهودي وغير اليهودي ويقود إلى الاندماج، كما كان الحال في الحقيقة منذ القرن الثامن عشر فصاعدا في كل مجتمع يهودي هجر الكتابة بالعبرية وبدأ يدير حياته الثقافية والدينية بلغة الدولة التي يعيش فيها. وحدث أيضا أن الدول القومية الجديدة ساعدت القوى الفاعلة لحفظ الذات اليهودية في أحياء مغلقة وأغلقت أبوابها في وجه التقدم العلمي والثقافي.

ومع ذلك، كانت هناك بعض المظاهر الماشيحانية الروحية بين اليهود (يوسف ناسي، داڤيد رؤوڤيني، وحركة شبتاي تسڤي) التي عكست ثورة لغوية، ولذلك كانت هناك انعكاسات يهودية خاصة للثورة اللغوية، أي ظهور لغات يهودية محكية بشكل كامل، ومكتوبة بقدر ما. وكان اليهود حتى نهاية القرون الوسطى، وحيثما هاجروا من بلد إلى آخر، يستمرون لجيل أو جيلين استخدام لغة موطنهم السابق في الحديث، ولكن بعد ذلك يتبنون لغة بلدهم الجديد. وهكذا كان اليهود يتكلمون لغة جيرانهم، ولو بلهجة يهودية مختلفة قليلا ومتضمنة كلمات عبرية. إلا أن هذا الوضع تغير الآن. فاليهود الألمان، الذين هاجروا إلى شرق أوربا نتيجة أعمال شغب صاحبت الموت الأسود (١٣٤٨- ١٣٤٩)*، لم يتبنوا بمرور الزمن اللغة البولندية أو أية لغة أخرى من محيطهم الجديد، بل تطور حديثهم اليهودي الألماني إلى لغة منفصلة هي البيديش. ومنذ بداية عصر الطباعة، طبعت كتب بهذه اللغة (بكلا الشكلين الغربي والشرقي) بشكل رئيس للنساء والمعدمين ثقافيا. ولم يتبن النازحون من اسبانيا أيضا اللغة التركية أو العربية، ولكن استمروا الكلام بالاسبانية، التي أصبحت فيما بعد لغة يهودية خاصة مختلفة تماما عن اللغة الاسبانية لاسبانيا أو جنوب أمريكا. وطبعت بهذه اللغة أيضا كتب كثيرة. وبما أن أدب هاتين اللغتين كان دينيا، فانه كان على مستوى عال في نغمته الشعبية، ويمكننا النظر إليه مواز لتغلغل اللغات المحلية في العالم المسيحي إلى ميادين الدين، والعلم، والإدارة. وعلى أية حال، وعلى

---

* **الموت الأسود وباء قتل الكثير من سكان أوربا خلال السنتين المذكورتين، وخاصة في ألمانيا واتهم اليهود فيها بتسميم الآبار.**

خلاف اللاتينية بين المسيحيين، لم تتراجع العبرية أمام تقدم اللغات اليهودية، بل تطورت حالة من التعايش ذي الإخصاب المتبادل.

ومرت العبرية، أيضا، بالمرحلتين اللتين ذكرناهما سابقا، وشقت اللغات المحكية طريقها لترث مكانة اللاتينية. وشهدت اللغة العبرية خلال القرنين السادس عشر- السابع عشر تغيرا ترك لأول وهلة الانطباع بالانحلال: نحوا وبناء غير صحيحين، وتعابير غير اصطلاحية، وتشويشا بين العبرية والآرامية التلمودية من جانب، وتنوعا غنيا بالتلميحات التي تبين معرفة مدهشة بالمصادر التوراتية والتلمودية من جانب آخر. وبسبب الموقف الشهم من النحو، تعرض هذا الأسلوب إلى نقد لاذع في وقتنا الحاضر، ومن الأفضل النظر إليه كتعبير عن فترة الهيجان والاهتياج التي كان دافعها الزخرفة والخدع الذكية التي أدت إلى كسر أوعية "اللغة".

وقد وصلت الكلاسيكية إلى العبرية بصورتين، اللتين شكلتا بثنائيتهما واختلافهما رمزا للتغيرات في القيم اليهودية التي أوشكت على الحدوث... فقد بدأ أدب الهسكلاه* في القرن الثامن عشر في غرب (ألمانيا، وهولندا، وايطاليا) واخذ ينتشر من تلك البقعة إلى شرق أوربا. ويتسم أدب الهسكلاه في جوانبه الخارجية بتبنيه للأنواع الأدبية الأوربية (الشعر الأوربي، والمقالة، والدراما، والرواية)، وبموضوعاته التي اتسمت بالحنين إلى الحقبة التوراتية، وجمالها وصفائها واستقلالها القومي؛ وبالتصاقها باللغة العبرية التوراتية، والاهتمام الحماسي بالنحو، وتجنب مجامع الكلمات غير الموجودة في

*** الهسكلاه: مصطلح صاغه يهودا جيتلرز في عام ١٨٣٢ للإشارة إلى حركة التنوير الأوربية التي انتشرت بين اليهود ما بين ١٧٥٠ و ١٨٨٠ ، ودعت اليهود إلى الحداثة ومراجعة ديانتهم وعاداته وفق معايير حديثة وإنسانية.**

المصادر قدر الإمكان. إن تقليد الأنموذج الكلاسيكي الأوربي واضح، وكان كتاب الهسكلاه على معرفة تامة به.

ولم يكن مألوفا، من ناحية أخرى، النظر إلى الأدب الحسيدي* على انه أدب كلاسيكي، بل نظر إليه على انه تعبير طبيعي لروح شعبية. ولم يتزامن الأدب الحسيدي في الحقيقة مع ظهور أدب الهسكلاه فحسب، بل أن القصص الحسيدية لم تصلنا بالشكل الذي كان يرويها بها "بعل شيم طوف" ووريثوه باليديشية، ولكنها كتبت بالعبرية، ولذلك يعتقد أنها كانت تمر بعملية صياغة (من الذاكرة) وإنها اجتازت بلورة أسلوبية. وعلى خلاف أسلوب القرون السابقة، تبين تلك القصص تقييدا ذاتيا أسلوبيا واضحا، يخفي أكثر مما يقول، بلغة ذات ميزان موسيقي وإيقاع. ومن السهل علينا ملاحظة سمات هذا الأسلوب الذي صاغه من جديد الأديب اللامع ش. ي. عگنون. ويعجب أولئك الذين يعرفون كتابات عگنون، وبشكل متميز، بشكلها وليس أقل بمحتواها. وفي الحقيقة، لابد من توجيه الشكر إلى عگنون وتأثيره في الجيل الشاب من الكتاب النثريين الإسرائيليين، وأصبح لأسلوب القصص الحسيدية في الوقت الحاضر تأثيرا مميزا للأنموذج الكلاسيكي.

لقد التفت كلا الأدبين، الهسكلاه والحسيدية، إلى الوراء إلى الماضي، إلى درجة أنهما سعيا إلى حل مشكلة اليهودي في وقتهما، وكان ذلك من خلال توجيه رؤيته إلى قيم الماضي والسرمدية. وعلى الرغم من أن ضم أدب الهسكلاه (وليس معاصره الأدب الحسيدي) تحت مصطلح "الأدب العبري الحديث" هو أمر مألوف، إلا أن هذا

*** الحسيدية حركة دينية روحية واجتماعية أسسها إسرائيل بعل شيم طوف في (١٦٩٩-١٧٦١) في فولهينيا وبودوليا وانتشرت فيما بعد في شرق أوربا**

الأدب لم يتخذ خطوة حاسمة نحو الاتصال المباشر بصورة الحاضر ومشاكله. وكانت لغة هذين الأدبين هي لغة الماضي، وليست "العبرية الحديثة"، التي سنتناول ظهورها فيما يأتي.

١٠- إحياء اللغة

على الرغم من أن استخدام العبرية التوراتية التام أيام حقبة الهسكلاه كان نتيجة لظروف تاريخية، إلا انه يمثل احتياج تلك الحقبة على وجه الدقة. ومن اجل اتصاله بالآخرين، كانت لليهودي لغة البيدش أو لغة أوربية أخرى؛ أما العبرية فكانت تسد احتياجات المسكيل العاطفية، فقد منحته العبرية التوراتية الحاجة الجمالية التي كانت مفقودة في محيطه، وهو ما دعا إليه أدب الهسكلاه. وأكدت قوانين هذه اللغة له انه يمتلك لغة متحضرة ومنظمة (في حين عدت اليديشية بدون نحو). أن حقيقة مصدر لغة المسكيل هي كتاب والتي يمكن ترجمتها بطرق شتى غالبا، تمنح المسكيل فرصا كثيرة لممارسة تلك القدرة من الحساسية الثقافية التي كانت مغروزة بعمق في الشخصية اليهودية منذ القرون الوسطى، واستخدمت بمثابة بديل لدراسة التلمود أو القبّالا. ويجب أن نلحظ هنا أن أدب الهسكلاه لم يضع الأساس للصهيونية من خلال موضوعاته التوراتية (التي أثارت الشوق إلى حياة قوية شاملة وحرة) فحسب، ولكن هيأ الأرضية أيضا لإحياء العبرية بوصفها لغة يومية من خلال تفعيل وسائل العبرية التوراتية المتاحة إلى أقصى حد وتكييفها للاستخدام كوسيلة لفكر عصرها وعصرنا. وكان هذا الانجاز الناجح لهاتين المهمتين التمهيديتين هما اللتان عجلتا على وجه الخصوص نهايته؛ فلم تستطع الأشكال الأدبية أو لغة الهسكلاه في النهاية من تلبية الاحتياجات التي بلورتها في عقول قرائها. ويمكن القول إن جزءا من نجاح الهسكلاه يعود إلى أن كثيرا من اليهود، بينما بقوا مخلصين إلى يهوديتهم، اكتسبوا معرفة عميقة بالفكر الأوربي المتطور لعصرهم، وأصبحوا

معتادين على طرق ذلك الفكر الذي لم ينجح كتاب الهسكلاه بــالتعبير عنه بالوسائل المتاحة لهم.

وكانت الفجوة، بالطبع، بين لغة الهسكلاه وبين متطلبات التفكيــر المعاصر اكبر في مجال النقاش السياسي والاجتماعي. ومــع ذلــك، كشفت هذه الفجوة عن نفسها بشكل أوضح في مجال النثر القصصي، حيث كانت إحدى نتائج الثورة فــي الفكــر الــسياسي والاجتمــاعي الأوروبي الدعوة إلى الواقعية في الرواية: على النثر القصــصي أن يعرض الحياة كما هي عليه- وبشكل خاص الأوجه الــسلبية- وهــذا تطلب عرضا أمينا من اللغة لشخــصياتها. وعنــدما تــرجم كالمــان شولمان في الأعوام ١٨٥٧-١٨٦٠ الرواية الفرنسية الواقعية (خفايــا باريس *Les Mysteries de Paris*) ل Eugene Sue اوجين سو، استخدم عبرية توراتية محدودة في نقل عالم تلك الرواية؛ ولــم يجــد قراؤه العبريون على ما يبدو أي خطا في ذلك. وفي الأعوام ١٨٥٧-١٨٦٤، نشر أبراهام مابو روايته الواقعية (المنافق *the hypocrite*) عرض فيها قدرا ما من الواقعية اللغوية التي تثور فيها الشخــصيات على النور، أنصار الهسكلاه، وتحدث فيها بعناصر لغوية مزيجة من لغة المشنا والتلمود. إذن ماذا كان غرض مابو من استخدامه العبريــة المشنائية؟ وعلى ما يبدو بوضوح، كانت لغة التلمود بالنسبة له نوعــا من صورة أدبية للكلام البيدشي. أما الآن، فان إحدى سمات الهسكلاه كانت معارضتها لليدش لأنها تمثل لهم علاقة حزينة لليهودية. وبــدلا من ذلك، استخدم الكثير من المسكيليم (على الأقل جهارا) الروسية أو الألمانية، ويبدو أن هذه العادة قد عرضت في الكتاب فــي الحــديث التوراتي للشخصيات المسكيلية. وهناك سمتان لائمتا العبرية المشنائية لتكون صورة مناسبة لليدش: تضمن العنصر العبري فــي اليديــشية

بشكل رئيس كلمات عبرية وآرامية من التلمود والمدراش، ولذلك عندما أقحمت مثل هذه الكلمات في مضامين جديدة بقيت تذكر القارئ بالجرس البيديشي؛ وطالما أن جميع كتب قواعد ذلك الوقت (باستثناء بعض الكتب العلمية المعروفة القليلة) قد تناولت العبرية التوراتية، عدت العبرية المشنائية "لغة بدون قواعد"، على غرار البيديشية كما اعتقد.

وتعود جذور شولمان و مابو إلى المرحلة الرومانسية للهسكلاه، في حين عد شالوم يعقوف ابراموفيتش ، الذي اشتهر باسمه القلمي مندلي موخير سفاريم (مندلي بائع الكتب)، عموما من الجيل الجديد. ومن بين منشوراته، تحتل تراجمه لكتب في الكيمياء (١٨٦٢) مكانا متميزا، وفي علم الحيوان (ثلاثة أجزاء، وفي التاريخ الطبيعي لليتر ١٨٦٢-١٨٧٢)، وفي التاريخ الروسي (١٨٦٧). وكانت قصته الأولى "*تعلم أن تكون جيدا !*" في الحقيقة الجزء الأول من روايته المهمة "*آباء وأبناء*" التي ظهرت في عام ١٨٦٢. وكانت هذه القصة واقعية (كما فهم هذا المصطلح فيما بعد) مع مزيج بسيط من عناصر تعود إلى ما بعد الحقبة التوراتية. إلا أن المحصلة لم تقنع المؤلف الذي بلغ من العمر ٢٥ عاما، لاسيما أن ذوقه الأدبي قد صقل في الحقبة الجديدة التي تطلبت صدقا فنيا قبل كل شيء، ولذلك أحس بسخافة النماذج اليهودية في منطقة تواجدهم التي تعبر عن مشاعرها الحديثة بشظايا آيات من أسفار الأنبياء. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الشكل القديم للغة لم يكدر ذوق اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (إذ لم تكن العبرية لغة محكية حية بعد)، ولكن العلاقة الوطيدة التي أقامها أدب الهسكلاه بين العبرية التوراتية وبين الأبطال التوراتيين لقصصه وقصائده. لقد دفن ابراموفيتش بقية الرواية، وفقط

عمل على نشرها كاملة بعد النجاح الباهر للنسخة الروسية (التي ترجمها من المخطوطة العبرية) ل. بينستوك في عام ١٨٦٨. وفي نفس تلك السنة، ظهرت *"الآباء والأبناء"* بالعبرية. وقد حصل ذلك، على أية حال ، بعد أن أدار ابراموفيتش ظهره للرواية العبرية.

وبعد صمت دام لسنة واحدة، ظهرت في الدورية العبرية *قول مقتسير"* (صوت مبشر) قصة ابراموفيتش الأولى باليديشية *the little man* (القزم). وقد استخدم فيها المؤلف اسمه القلمي "مندلي موخير سفاريم" (مندلي بائع الكتب)، وبذلك فانه يطابق الصورة المعروفة في منطقة اليهود، صورة بائع الكتب الدينية المتجول مع حصانه وعربته. وفي تلك السنة نفسها نشر كتابا صغيرا باليديشية مترجما عن الألمانية. وفي خلال السنوات العشرين الأخيرة، نشر قصصا كثيرة باليديشية، وبذلك قدم دعما للأدب اليديشي، الذي اخذ يتحول الآن من أدب شعبي عامي إلى مكانة إحدى الآداب الأوربية العظيمة. وقد اتسمت قصص أبراموفيتش اليديشية بواقعيتها الممزوجة بنغمة هجائية، ومثلت لغتها بأمانة حديث الجماهير اليهودية إلا أنها قدمت بأسلوب فني. وتوقف مندلي الكتابة باللغة العبرية، واستمر بتراجمه العلمية، وساهم بنشر مقالات موضوعية ورسائل إلى الصحافة العبرية، واظهر في قصصه معرفته باللغات. ولكنه، في الحقيقة، بقي بوضوح غير سعيد لهجره العبرية. وفي عام ١٨٧٨، أكمل نشر أحد أعماله اليديشية العامة *the travels of Benjamin the third* (رحلات بنيامين الثالث) التي أعقبها توقف طويل في نشاطه الأدبي إلى أن خرج عام ١٨٨٤ بمسرحيته اليديشية الموسومة *the call-up* (*الدعوة إلى الخدمة العسكرية*). وبعدها بسنة بدأ ينشر قصة بالعبرية *in the secret place of thunder* (*في المكان السري للرعد*)

(الابتهالات ٨١: ٨) في اليومية العبرية hayyom (اليوم) التي أسست حديثا.

وتمثل عبرية هذه القصة تعارضا تاما مع لغة الهسكلاه؛ فبدلا من عرض صور اللغة في حقبة معينة، استخدم مندلي فيها مزيجا حرا من حقب مختلفة. وعلى الرغم من أن أساسها توراتي إلا انه أضاف إليها كلمات وعبارات اصطلاحية وأشكالا نحوية من المشنا، والتلمود، والمداريش سوية مع مفاهيم غير موجودة في العبرية التوراتية من أجل تنوع أسلوبي ومضموني. وقد تبنى معاصروه في الحال هذا النموذج اللغوي. وقد استمر مندلي نفسه الكتابة بهذا النوع اللغوي من العبرية، وترجم إليها بعض أعماله اليديشية السابقة. وفي الحقيقة لم يتوقف مندلي عن الكتابة باليديشية، ولكن كتاباته الرئيسة من الآن فصاعدا كانت بالعبرية. وقد شكلت كتاباته هذه جسدا كبيرا ذا نوعية أدبية عالية رأى فيها الكثيرون بدايات للأدب العبري الحديث. وبدأ آخرون عموما استخدام هذا المزيج "التركيبي" العبري، ليس فقط في النثر وإنما- من قصيدة بياليق الأولى فصاعدا- في الشعر أيضا. وباستثناء المستشرق الباريسي جوزيف هاليفي (١٨٢٧-١٩١٧)، الذي شنّ حملة شعواء من أجل إحياء العبرية التوراتية، قبل الأغلبية بمرور الزمن حرية الكاتب العبري في أن يستمد مادته اللغوية من مصادر اللغة جميعها. وقد شكل هذا المبدأالأساس للعبرية المستخدمة الآن، على الرغم من أن بعض الباحثين في اللغة (أمثال يوسف كلاوزنر، ١٨٧٤- ١٩٥٨) قد أيد الأولوية للعناصر المشنائية. وهناك اعتقاد واسع أن العناصر التوراتية والمشنائية يجب أن لا تكون متصلة في البناء اللغوي (وهذا ما يدعى ب" لغة الأنواع المختلفة" (the language of divers kinds)- انظر سفر اللاويين ١٩:

١٩). وفي الحقيقة، فان الممارسة الواقعية تشهد أن العناصر اللغوية ممزوجة تماما بالحديث والكتابة إلى درجة يصعب تمييزهما. وهذا المزيج لا يشبه اليوم المزيج الذي نجده عند مندلي، وليس هو نفسه في جميع الحالات: إذ مألوف للكل، على أية حال، اختيار كلمة أو شكل معين ليس لأنه يعود إلى نوع من المصادر الأدبية وإنما فقط لملائمته التعبير عن الفكرة المعنية. إن إضافة المفردات المشنائية معناه ازدياد جوهري لوسائل التعبير: فبالإضافة إلى المفردات التوراتية البالغة ٨٠٠٠ أضيفت إلى العبرية ١٤٠٠٠ مفردة مشنائية. وفي حقب لاحقة ازداد هذا المركّب بمفردات من مصادر وسيطة تمتد من البيوط إلى القرن الثامن عشر. وليس أقل أهمية الحقيقة، وبقدر ما يتعلق الأمر بالإخلاص للغة التوراتية، في انه لم يتم ابتداع كلمات جديدة. وقد تم التعبير عن مفاهيم من خلال ربط الكلمات التوراتية المتاحة. أما الآن فقد رفعت هذه القيود، وعاد مستخدمو العبرية إلى النهج الوسيط في صياغة أي كلمات جديدة ضرورية من العبرية وأيضا من الجذور الآرامية.

ولم يعظم مندلي نفسه الأسباب التي دفعته إلى العودة لكتابة روايته بالعبرية. ويمكننا القول أن الندم على هجر "لغة عابر" لم يكن دافعه الوحيد، وإنما أيضا سوء الحال الذي واجهه يهود روسيا. ففي أيام القيصر الليبرالي الكسندر الثاني (الذي حكم ما بين ١٨٥٥- ١٨٨١)، منحت حقوق معينة لرجال أعمال يهود ولأعضاء آخرين في المهن الحرة، وكان هناك أمل كبير في تحسن تدريجي لوضع اليهود عموما. ولكن اغتيال القيصر الليبرالي أدى إلى تتويج ابنه الكسندر الثالث، الذي اتسم بنزعته الرجعية وبكراهيته لليهود (١٨٨١- ١٨٩٤). فبعد شهر واحد من تبوئه العرش، أيام عيد الفصح من عام ١٨٨١، وقعت

مجازر في جنوب روسيا، وربما بمعرفة وتشجيع الحكومة. وعلى أية حال، شجعت حكومة القيصر موجة هجرة واسعة لليهود، بدأت مع وقوع هذه المجازر وطيلة ذلك الوقت أدت إلى تحويل مركز يهود العالم إلى القارة الأمريكية، والى غرب أوربا وجنوب إفريقيا. وكانت إحدى نتائج هذه الصدمة هي النقاش الحي بشان مستقبل اليهود، الذي جرى بشكل أساس بالعبرية، وأدى إلى إقامة نشرات دورية جديدة، وأيضا إلى ظهور صحيفتين يومية بالعبرية في روسيا في عام ١٨٨٥. وقد نشرت قصة مندلي الأولى من عصره العبري الثاني في إحدى هاتين الصحيفتين اليوميتين، ولسنا مبالغين إذا نظرنا إلى ذلك على انه احد المظاهر المختلفة للروح القومية بين اليهود الروس. وقادت نفس تلك الروح أيضا بعض المهاجرين، وبشكل خاص من بين الشباب المثقف، إلى الهجرة إلى فلسطين (التي كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية). وقد ذهب هؤلاء الرجال والنساء وهم يتمتعون بتصميم قوي على بناء حياة جديدة لأنفسهم، على خلاف ما جرى لهم في روسيا، وكانوا منفتحين على كل فكرة جديدة من شانها أن تخلصهم أكثر من الاندماج في أوروبا وتجلبهم بشكل اقرب إلى إقامة كيان يهودي مستقل ثقافيا. ومع هؤلاء الشباب الذين قطعوا كلية عن موطنهم، توفرت إمكانية – وهي نادرة جدا في تاريخ الإنسانية – البدء بحياة جديدة. وكانت البداية زاخرة بالرغبة بتكوين مجتمع أفضل (على الاشتراكية والنظريات القريبة منها) وعلى الأفكار الأوربية القومية التي تغلغلت إلى روسيا فقط خلال السبعينات نتيجة للحرب البلغارية من اجل الاستقلال.

وتعد تلك الروح القومية الأوربية السبب في خلق تغييرات ثورية في عقل اليهودي الروسي الشاب حتى ما قبل التحول العظيم في

مصير اليهود الروس. وكان اليعزر بن يهودا (بيرلمان) الذي ولد في عام ١٨٥٨ في المدينة الصغيرة لوزكي في شمال روسيا لعائلة أرثوذوكسية قد أرسل إلى مثيبة ومن ثم تم إبعاده، ولمصلحته لأنه اكتشف انه يقرا نحوا عبريا لشلومو زلمان هناو (من القرن السابع عشر)! وبهذه الطريقة أصبح مسكيلا، ودرس من اجل القبول في ثانوية دونابيرغ (دوينسك، في لاتاڤيا)، حيث أصبح ملما بالفكر القومي. وفي عام ١٨٧٨ بدأ بدراسة الطب في باريس من اجل إعداد نفسه للهجرة إلى فلسطين. وفي ذلك الوقت، كان هناك في باريس العديد من السياسيين المنفيين من شرق أوروبا، ومن خلال محاوراته معهم رسم بشكل مفصل فكرة القومية اليهودية. وفي بداية عام ١٨٧٩، بلور وجهات نظره في مقالة اسماها *a burning question* (مسالة ملتهبة) سلمها إلى *"hammaggid* (المخبر) وهي إحدى الدوريات الأكثر قراءة في روسيا، لكن المحرر أعاد المخطوطة مذيلة بملاحظة "غير قابلة للنشر". فقام بتسليم المقالة ثانية، وهذه المرة إلى پيرتس سمولنسكين، *hashahar* (الفجر) التي نشرت في فينا للقراء العبريين في روسيا. وكان سمونسكين أكثر تنورا ووافق على نشر مقالة ابن يهودا شريطة تغيير عنوانها إلى *an important question* (مسالة مهمة)، وبين معارضته لأفكار ابن يهودا في ملاحظة خاصة به. وقد ظهرت المقالة بعد سنتين بالضبط من المذابح التي وقعت في روسيا، وفيها طور النظرية القومية اليهودية (واخترع فيها الكلمة العبرية) مؤكدا الحاجة إلى استيطان يهودي كبير الحجم في فلسطين – ليس فقط من اجل إنقاذ الأمة وإعادة مجدها (ويبدو انه لم يكن جريئا بعد في ذكر ذلك بوضوح)، ولكن من اجل إنقاذ الأدب العبري! ليساير وجهة النظر الأدبية عن القومية، حيث عدت اللغة

السمة الرئيسة للهوية القومية، ناقش فيها هؤلاء الذين ينكرون وجـــود امة يهودية: "لدينا لغة نستطيع أن نكتب بها الآن أيضا كل ما نرغــب به، ولدينا الإمكانية أيضا للحديث بها إذا أردنا ذلــك". وبعــد إدراك خطته الاستيطانية، "فلسطين ستصبح مركزا لكل الأمـــة، وســـيدرك أولئك الذين يعيشون في الخارج أيضا أن أمتهم تسكن فـــي أرضـــها، ذلك أن لغتها وأدبها هناك، وهناك سيكون الأدب قادرا علـــى دعــم أولئك الذين يكتبون بها وستصبح مهنتهم الاعتيادية، كما هو الحال مع أدب باقي الأمم".

لقد وردت في هذه المقالة للمرة الأولى العلاقة بين الإحياء القومي اليهودي والحديث العبري، وأدرك ابن يهودا بفضل موهبته الكبيرة أن ليس هناك مكان لتنوع اللغات في أمة حديثة، وأن اســتخدام اللغـــات المختلفة سوية لمتطلبات الحياة الاجتماعية المختلفة هي مرحلة علـــى الشعب اليهودي تجاوزها على غرار ما مرت به الأمم الأوربية خلال القرون السابقة، عندما توقفت عن استخدام اللاتينية وبدأت باســتخدام لغاتها للأغراض التي أدتها اللاتينية سابقا. إن الوجه الفريد لمـــشروع ابن يهودا هو أن جميع مظاهر التعددية اللغوية حتى ذلك الوقت قــد انتهت من خلال توسيع مجال اللغة المحكية لتتبنـــى مكانـــة اللغـــات المكتوبة أيضا، بينما وسعت اللغة المكتوبة في هذه الحالـــة مجالهـــا لتتضمن النشاطات المحكية. وقد كان هذا الاختلاف حتمي عند قيـــام دولة الأمة اليهودية: فاللغة العبرية كانت في ذلـــك الوقـــت العنـــصر الموحد في حين أن اللغات المحكية كانت عنصرا حاسما للاخـــتلاف. وحالما يبدأ أحدهم بالتفكير بالحل القومي للمشكلة اليهودية، تبرز آليـــا ضرورة اللغة المشتركة التي يمكن من خلالها الاستمرار بالعيش فـــي وطن مشترك. وتكمن عظمة ابن يهودا في إدراك العبريـــة بوصـــفها

لغة حفظت جميع ذكريات الشعب التاريخية، وهي الوحيدة التي يتفق عليها جميع أطراف الأمة.

وكانت نظرة ابن يهودا بطيئة في اكتساب موافقة قادة الأمة، وغالبا ما رفض معظم الكتاب العبريين في ذلك الوقت، ومن ضمنهم مندلي، فكرة إحياء العبرية في الحديث. وعند نهاية عام ١٨٩٥، كتب هيرتزل في "الدولة اليهودية" أن "ليس هناك مجال للنقاش حول اتخاذ العبرية لغة للدولة، فالشعب لا يعرفها: "ومن هو من بيننا يعرف العبرية بما فيه الكفاية ليشتري تذكرة من محطة القطار بها؟". وتجاهلت المنظمة الصهيونية لسنين عدة دور العبرية بوصفها لغة قومية. وحتى أن يحيئيل ميخائيل پينس من القدس، الذي أصبح فيما بعد المعاون المخلص لأبن يهودا، دعا فكرة إحياء العبرية "بالأمل المقدس" ذي الاحتمال الضئيل في التحقق. وعلى أية حال، بدأ أبن يهودا تطبيق هذه الفكرة في حياته الشخصية. وفي مقدمة معجمه الكبير، يخبرنا كيف استخدم العبرية للمرة الأولى في مقهى في باريس، وكم أحس بالغرابة عندما "امتزجت الأصوات الغامضة لتلك اللغة الشرقية القديمة الميتة مع النغمات المبهجة للغة الفرنسية الغنية، والجميلة والحية...". وكان الطرف الآخر لذلك النقاش ربما م. زوندلمان، معلم من فلسطين، تعلم منه أبن يهودا أن العبرية في فلسطين قد استخدمت وسيلة للتعامل في السوق بين الشعب من مختلف المجتمعات اليهودية، وكذلك عن اللفظ السفارادي المستخدم للتحدث بها.

وعندما وصل أبن يهودا إلى فلسطين في ١٨٨١، أحس بإمكانية الحديث بالعبرية لأن أناسا كثيرين يستطيعون الحديث بها لأغراض محدودة. ولكن أبن يهودا بدأ يطلق دعوة مختلفة عن استخدام الحديث

العبري العرضي، وأكد أن على الشعب أن يتكلم بالعبرية فقط، في بيته ومع عائلته أيضا. وبكلمات أخرى، يجب إيقاف حالة التعددية اللغوية. وقد واجهت هذه الدعوة تجاهلا تاما من جانب الجمهور. وقد فرض أبن يهودا، في الحقيقة، العبرية في بيته: مع زوجته التي تزوجها أثناء رحلته من فرنسا إلى فلسطين، وتكلم بالعبرية بشكل تام، على الرغم من قلة معرفته بها في ذلك الوقت. وعندما ولد أبنه في عام ١٨٨٢، رباه بالعبرية فقط، وحرّم على أمه الاتصال به وتركه مع ممرضة تتكلم العبرية على الرغم من تحذير صديقة واي. م. پينيس من أن الطفل سينشأ غبيا!

إن فكرة أبن يهودا التي أدت أخيرا إلى النتائج المطلوبة كانت تتمثل في تقديم العبرية لغة للتدريس في المدارس. وفي الحقيقة استخدمت العبرية في المدارس الفلسطينية لغة لقراءة الكتب، لكن التعليم جرى بلغة ذلك المجتمع الخاص أو بلغة أوربية، وترجمت النصوص العبرية إليها في الفصل. وبدأ أبن يهودا بتعليم "العبرية بالعبرية" في مدرسة العصبة الإسرائيلية (الإليانس)، وكانت قد جرت محاولة سابقة بهذا الاتجاه قام بها "تسيم بيهر"، إلا أنها كانت تفتقر إلى الأساس الإيديولوجي للقومية. وقد أضطر أبن يهودا بعد ذلك بوقت قصير إلى التوقف عن التعليم بسبب سوء حالته الصحية، وكرس نفسه من الآن فصاعدا إصدار صحيفته التي استمر فيها في خلق دعاية لاستخدام العبرية لغة في المدارس.

وفي هذه الأثناء وصلت إلى فلسطين جماعة *البيلو* التي كانت تمثل نخبة الهجرة الأولى، ومن ناحية أيديولوجية تمثل الجماعة ذات الوعي القومي الأوضح. وبينما ما زال أفراد هذه الجماعة في روسيا، قرأوا في صحيفة أبن يهودا عن نضاله، وعبروا في رسالة عن

اتفاقهم مع مبدأ إحياء اللغة. وعند وصولهم إلى فلسطين، رحب بهم أبن يهودا بمقالة بعنوان "مواطنون ليسوا غرباء". وتبنى هؤلاء فكرة تقديم العبرية لغة للحوار والتعليم في الدراسة. وعندما أسست أولى المستوطنات، بذلت جهود لاستخدام العبرية في المدارس هناك لغة للتعليم. ومع بداية عام ١٨٩٠، وحسبما علمنا، كان معلمو جميع المستوطنات في الجليل يدرسّون العبرية. وكانت هناك العديد من الصعوبات، ولم تكن العبرية دائما ناجحة في كل مكان لغة وحيدة للتعليم، لاسيما عندما كان المستوطنون يعتمدون على دعم المنظمات اليهودية في الخارج للاستمرار في بقاء مؤسساتهم، التي مالت إلى إشاعة لغة بلدها في المدارس التي تقوم بتمويلها. وعلى أية حال، بدأت المدارس العبرية عموما تتخذ إطارا وتتعزز من خلال تأسيس رياض الأطفال (من ١٨٩٨ فصاعدا) والمدارس العالية؛ فقد أسست ثانوية هيرتزليا في تل أبيب عام ١٩٠٦ وثانوية القدس في ١٩٠٨. وهنا يجب الإشارة إلى أن معلمي العبرية الأوائل لم يدربوا بصفة معلمين، ولم تكن لديهم كتب نصوص عبرية، وفوق كل ذلك كان عليهم أن يدرسوا بالعبرية التي لم يعرفوها هم أنفسهم، وما زال هناك الكثير من النقص في المفردات.

لقد كان الشعور بنقص المفردات كبيرا منذ بداية فترة الإحياء. وبقدر ما كانت العبرية تمثل نوعا من الترف، كان الكاتب يمتنع عن ذكر شئ ما لا يعرفه بالعبرية، أو ربما ينثره في عدة كلمات، أو ببساطة يلجأ إلى استخدام الكلمة الأجنبية. ولكن الشخص الذي يستخدم العبرية في الحديث اليومي كان بحاجة إلى كلمة عبرية مختصرة ودقيقة لكل شئ، وكلما كانت هناك رغبة في قيام عبرية أفضل في الحديث بين المعلمين والطلبة، كانت الحاجة أكبر إلى المفردات. وكان بالإمكان سد جزء من النقص في هذا المجال من خلال البحث في

مصادر اللغة، ولاسيما التلمود. وكثير من المفردات التي بدت قبل حقبة العبرية المحكية غير مناسبة، اكتشفت فائدتها الكبيرة الآن، وبتعديلات بسيطة في المعنى، يمكن أن يستخدمها المتحدث العبري في فلسطين. وقد حمل أبن يهودا هذه المهمة على كتفه شخصيا: في عام ١٩٠٣ نشر معجما بسيطا، ومنذ عام ١٩٠٨ فصاعدا، بدأ بطبع معجمه الكبير "كنز اللغة العبرية الشامل" المبني على البحث في مئات الكتب ومن جميع حقب اللغة. وبعد موته، أكمل معجمه المرحوم م. ز. سيجال، والقسم الأعظم منه ن. هـ. طور سيناي، إلى أن أكمل في ستة عشر جزءا، وعلى الأغلب من ٨٠٠٠ صفحة في عام ١٩٥٨. وما زال هذا المعجم أيضا بعيدا عن تناول جميع ما نستطيع تناوله من أدب الأجيال السابقة لغرض استخدامه من جديد في عصرنا الحالي. وقد أضافت معجمات جديدة نسبة كبيرة من المفردات، وما زال مجمع اللغة العبرية منهمكا في إعداد معجم أكاديمي شامل بإشراف ز. بن حييم، وسيصبح من السهل إيجاد جميع الكلمات العبرية التي استخدمتها العبرية. ومع ذلك، هناك ابتكارات كثيرة ومفاهيم يصعب وجودها في لغة المصادر، وهنا ما زالت الحاجة واضحة إلى صياغة مفردات جديدة. وكان أبن يهودا مخترعا مواظبا للمفردات، وكثير من هذه المفردات التي نستخدمها في حديثنا اليومي الحالي، مثل كلمة معجم، وصحيفة، وساعة، وزي، ومنديل، هي من اختراعاته.

وما بين ١٩٠٠ و ١٩١٠، تزوج زوج من الشباب بعد أن أتما المدرسة العبرية وكانت عبريتهما سلسة وطبيعية. وفي تلك الأثناء، ولد أول الأطفال في عوائل تحدثت بالعبرية في البيت فقط، وتربى هؤلاء الأطفال على العبرية من دون أي جهد خاص. وقد كان هؤلاء أول الناس، بعد توقف دام ١٧٠٠ عام، لم يعرفوا لغة غير العبرية، وبهذا أصبحت العبرية ثانية لغة حية.

١١- الحياة الجديدة للغة العبرية

في الفصل السابق رأينا كيف بدأ إحياء العبرية بوصفها لغة حديث، على أساس أيدلوجية بوحي من الأسلوب الأوربي القومي، وتم تطبيقه عمليا في المدارس. وقد جلبت الهجرة الثانية (١٩٠٤- ١٩١٥) من شرق أوربا شبابا مشبعين بتعاليم القومية التقدمية. وعند وصولهم، أصبحت العبرية بشكل متزايد جلية في الحياة العامة وفي شوارع القطاع اليهودي من فلسطين. كما استمرت الحياة الثقافية للمجتمعات اليهودية المختلفة بخطوط موازية تقريبا كما هو الحال في مواطنهم الأصيلة. أما في مجال النشاط الاقتصادي؛ فلم تحصل بعد تلك الثورة التي أدت إلى الانقسام الحالي بين البناء الاجتماعي للاستيطان وجميع المجتمعات اليهودية في الخارج. وباستثناء الشعور بانجاز القدر القومي- الذي لم يتخذ في ذلك الوقت بعد أنماطا سياسية واضحة- كانت الصورة المميزة والبارزة للاستيطان الفلسطيني هو الحديث العبري، سواء كواقعية جزئية أو كمثالية ستدرك في المستقبل القريب. وعندما أجرت المنظمة الصهيونية في ١٩١٦- ١٩١٨ إحصاء السكان اليهود في فلسطين، ٣٤٠٠٠ نسمة، أو ٤٠% من مجموع أل ٨٥٠٠٠ الذين شكلوا يهود فلسطين فيما بعد، أوضحت أن العبرية كانت لغتهم الرئيسة. وقد أصبح هذا الانجاز المثير أكثر أهمية إذا أخذنا بعين الاعتبار التفاصيل الآتية: كانت النسبة بين الشباب ٥٠%، وبين شباب تل أبيب والمستوطنات الزراعية (حيث تركز الاستيطان الجديد) ٧٥%. ولم تتضمن هذه البيانات القدس (حيث لم تبحث مسالة اللغة العبرية)، ولا تتضمن أيضا المهاجرين

الجدد الذين تركوا فلسطين مع بداية الحرب، وكانوا في معظمهم دون شك متحدثين للعبرية.

وفي هذا الوقت بقيت المدرسة بؤرة لإحياء العبرية، وهناك أيضا بدأ الصراع القومي للاستيطان، حيث حدثت "حرب اللغة". وكانت المنظمة الألمانية اليهودية الخيرية (عرفت في ذلك الوقت باسم "عزرا") تدعم عددا من المدارس في المدن الفلسطينية، بضمنها كلية للمعلمين في القدس. وكانت لغة التعليم في هذه المدارس هي العبرية ولكن جمعية عزرا، مثلها كمثل بقية الهيئات من نوعها، رأت أن مهمتها هي نشر المعرفة والثقافة بلغة أوربية، وفي هذه الحالة بالألمانية. وقد سبب التجاوز المستمر للألمانية في المدارس معارضة، وبشكل خاص بين طلاب كلية المعلمين. ووصل التوتر ذروته في عام ١٩١٣، عندما خططت منظمة عزرا إنشاء مدرسة تقنية عالية في حيفا، وأعلنت أن جميع موضوعات هذا "*التخنيون*- المعهد التقني" يجب أن تدرس بالألمانية، طالما أن العبرية لم تتطور بشكل كاف بعد للاحتياجات العلمية الدقيقة. وأقام المعلمون الشباب، سوية مع تلاميذهم، مسيرة احتجاج أمام مدارس هذه المنظمة. وبدأت المنظمة الصهيونية، التي لم تقم حتى ذلك الوقت إلا بخدمة شفوية للغة العبرية، بالعمل، وأخيرا أحبط مشروع إقامة هذا المعهد التقني. وقد تصرف السكان اليهود في فلسطين في هذه الإثناء وفق معايير النضال القومي، وليس من الخطأ أن نعد حدث حرب اللغة البرهان الأول على قيام امة يهودية جديدة في فلسطين، على أساس لغوي مهيمن.

وكان واحد من أهم التطورات الداخلية في تاريخ اللغة العبرية في ذلك الوقت مرتبطا بالمدارس أيضا، ألا وهو إقامة هيئة مركزية عالية

لتحديد شكل التوجه الذي يؤدي إلى تطور اللغة، أو كما نسميه الآن، التخطيط لتطوير اللغة.

وفي خلال العامين ١٨٨٩- ١٨٩٠ تأسست "لجنة لغة" (تعرف الآن ب"مجمع اللغة") في القدس. وكان أعضاؤها اليعزر ابن يهودا (١٨٥٨- ١٩٢٢)، وداڤيد يالين (١٨٦٤- ١٩٤١)، وحاييم هيرشنسون (١٨٥٧ – ١٩٣٥)، وأبراهام موسيس لونج (١٨٥٤- ١٩١٨)، وكان جميعهم من جيل ابن يهودا. وولد اثنان منهم فقط في فلسطين وهما يالين وهيرشنسون. وكانت اللجنة على علاقة وطيدة بجمعية *safah berurah* (لغة واضحة)، التي أسست قبل ذلك بوقت قصير. وكان هدف هاتين "الهيئتين" توسيع استخدام العبرية والعبرية المحكية بين جميع قطاعات الشعب. وليس لدينا معلومات مباشرة عن موضوعات مشاورات هذه اللجنة أو قراراتها لاسيما أنها كانت فعالة لعدة شهور فقط. ومن مختصر عرض في عام ١٩١٢ في العدد الأول من *minutes of the language council* (دقائق من مجمع اللغة)، ندرك أن "لقاءات تلك اللجنة تناولت المصطلحات والمفاهيم الأكثر أهمية ... وإقامة معايير صحيحة للفظ".

ومثلما أوضحنا أعلاه، أوقفت اللجنة في الحال نشاطاتها، وعلى وجه الدقة خلال السنوات التي استطاعت فيها اللغة أن تثبت كيانها في حياة الاستيطان، ولم تكن هناك هيئة مركزية رسمية تقوم بتوجيهها. وقد انبثقت القوى المسيطرة والمحفزة في ذلك الوقت أصلا من المدارس، أو بالأحرى من المعلمين، وكان كل معلم يتصرف حسب أسلوبه في الأمور المعنية. كما انهمك عدد من المعلمين في الكتابة. وعلى الرغم من أن هذا الأمر يبدو طبيعيا في الظروف العادية، إلا انه ما زال في حالة تجدد، وأدى إلى شعور بعدم الاستقرار. وقد

وجهت معارضة خاصة نحو كلمات مختلفة تتناول فكرة أو موضوعا معينا تم ابتكارها وعرضها في مواقف شتى. وتشهد تلك السنوات التأثير المتزايد لداقيد يالين، مستنبط الأدلة والحجج، الذي آمن بحماس بضرورة توجيه تطوير اللغة. وقد أدى *land of Israel convention* (ميثاق ارض إسرائيل) في زكارون يعقوف في عام ١٩٠٣ إلى إقامة اتحاد المعلمين، الذي ضم جميع معلمي العبرية في فلسطين، والذي اتخذ قرارا أيضا بإعادة تأسيس مجمع اللغة. وقد أسس هذا المجمع في المؤتمر الأول لاتحاد المعلمين، في خريف ١٩٠٣، وعقد جلسته الأولى في شتاء ١٩٠٤- ١٩٠٥ برئاسة ابن يهودا ويالين المشتركة. ومنذ بداية إقامته، أمطره المعلمون من جميع أنحاء البلاد برسائلهم سائلين رأيه بشان المصطلحات التي يقترحونها. وبمرور الزمن، نشر المجمع قائمة بالمصطلحات الفنية لجميع المواد، والانتهاء من كل موضوع قبل التحول إلى غيره. وقد تجنب هذا النهج الابتكارات الطارئة من مصطلحات فنية ملائمة لمتطلبات مستخدميها.

وتعود أهمية يالين وبقدر ليس بضئيل إلى حقيقة انه هو الذي أشاع من خلال كتابه العبري *le-fi ha-taf* ("حسب الأطفال" (وارشو، ١٩٠٠، انظر سفر التكوين ٤٧: ١٢)، نظام دراسة العبرية. وعلى الرغم من أن لهذا النظام جذوره في النظرية التعليمية الأوربية، إلا انه أصبح متلازما مع توسع الحديث العبري بين اليهود، وبلغ ذروته في أسلوب المعهد اللغوي في الخمسينات. وعد هذا الأسلوب العلمي الوحيد أمام تعددية لغات الطلبة، ومع ذلك كان ملائما بشكل خاص لفكرة إحياء العبرية في الحديث الشعبي، كما رفض استخدام اللغات الأجنبية من اجل تحقيق هذا الهدف أيضا. وهناك شك بسيط في أن

هناك دوافع مرتبطة بالحنين إلى المصدر الأول، والى الوقت الذي كان يعيش اليهود فيه في أرضهم، حيث كانت تبدو بعيدة عن قدرات يالين الهامة في الإقناع، لاسيما عندما قبل المعلمون تعليم العبرية في المدارس. وقد سار هذا القرار على نحو معاكس للواقع؛ فالإملاء "الكامل" (بإضافة واوات أو ياءات للإشارة إلى الكسرة والضمة القصيرة) كان جاريا في العبرية حوالي ألف سنة، وكان استخدامه متزايدا في فلسطين إلى أن أصبح أخيرا معيارا في الصحافة والكتب. وبالطريقة نفسها، أخذت تتغلغل في ذات الوقت وبازدياد كلمات نحوية من المشنائية في الاستخدام العام.

وقد فرضت الحرب العالمية الأولى على السكان اليهود في فلسطين تقليصا حادا في نشاطاتهم الثقافية، ولكنها جلبت أيضا وعد بلفور، وبموجبه الانتداب البريطاني عام ١٩٢١، الذي اعترف بالعبرية إحدى اللغات الرسمية الثلاثة لفلسطين (الأخريتان العربية والانكليزية). ومع بداية عام ١٩١٩، أسست الصحيفة العبرية الأولى *hadashot ha-aretz* (أخبار البلاد) (فيما بعد البلاد *هآرتس*). وفي عام ١٩١٨، وبينما أصوات إطلاق النار البعيدة كانت ما تزال تسمع، وضع حجر الأساس للجامعة العبرية في القدس، التي فتحت أبوابها للطلبة في عام ١٩٢٥. وبدأ التعليم في معهد حيفا التقني في عام ١٩٢٤. وفي عام ١٩٢٥ انتقل المسرح المنظم الأول *ohel* (خيمة) من موسكو إلى فلسطين. ومع وصول الشعراء حاييم نحمان بياليق إلى فلسطين في عام ١٩٢٤، وش. تشيرنيخوفسكي في عام ١٩٣١، ويعقوف كاهان، وكتّاب بارزين آخرين في ذلك الوقت، وبروز شهرة آخرين كان ظهورهم الأول في فلسطين، أمثال ش.ي.عگنون، و أ.شلونسكي، وشين شالوم، وكثيرين آخرين، أصبحت فلسطين مركزا

للثقافة العبرية لجميع العالم. وعلى عكس الحقبة السابقة للحرب، لم تعد المدارس بؤرة لتطور العبرية، بل الأدب، والعلوم، والفن، وقبل كل شيء الحياة الشعبية المعرفية والحكم الذاتي للاستيطان، الذي شكل دولة داخل دولة، وكل ذلك تم بالعبرية كلية. ولم تعزز الصعوبات التي وضعتها إدارة الانتداب في وجه الانجاز الصهيوني الهدف السياسي للاستيطان فحسب، ولكن أيضا التصاقه بلغته: فقد اضطر الاستيطان على إبقاء نظامه التعليمي، ونتيجة لذلك أيضا تأطيره وفق روحه؛ وأكدت قيود الهجرة والحاجة التالية إلى مدة إعداد (تأهيل زراعي) في الخارج على أن الرواد قد جاؤوا إلى فلسطين وهم يتحدثون العبرية.

وقد انتشرت العبرية خلال هذه الحقبة في فلسطين وخارجها في آن واحد. واستغل يهود الدول الحديثة في شرق أوروبا الحقوق القومية للأقليات التي أقرتها عصبة الأمم، وأسسوا شبكة فعالة من المدارس العبرية (بشكل رئيس تلك التابعة لمنظمة *تربوت* "ثقافة")، التي تعلم فيها آلاف الأطفال بالعبرية سوية بوصفها لغة للتعليم ومضمونا ثقافيا. وكانت هذه البداية لتغلغل العبرية الحية إلى الشتات، وهي مسيرة تعززت كثيرا بعد الحرب العالمية الثانية، مع تأسيس دولة إسرائيل، وأيضا بعد حرب الأيام الستة.

وقد اضمحلت الثقافة العبرية في شرق أوربا ووسطها أيام الهولوكوست (الإبادة). ومع ذلك، أدت ظروف الحصار الفعالة للاستيطان والانعزال أيام الحرب العالمية الثانية إلى سيادة العبرية في فلسطين لتصبح أكثر صلابة. وأضفت إقامة دولة إسرائيل على العبرية، وهو أمر لابد منه، صفة اللغة الرسمية (في حين حميت العربية بوصفها لغة أقلية)، وأيضا مكانة في الشؤون العالمية. وعلى

أية حال، عبّر تغير وضع العبرية، لاسيما أنها أصبحت لغة دولة ذات سيادة، عن نفسه في الظواهر الأدبية المقترنة بحرب الاستقلال. وبدأ جيل من الشباب المولودين في فلسطين مسيرتهم الأدبية من خلال وصف مشاعرهم أثناء هذه الحملة بلغة متحررة بشكل كبير من أي تأثير للمصادر (العهد القديم والأدب الرباني) وعكسوا بشكل فني، وأحيانا فطري وبأسلوب غني معقد، حديث الجيل الشاب، بكل عاميته وفطريته. ولم تستخدم تلك القصص فقط، بل أيضا الأغاني الشعبية التي عبّرت عن تلك الحقبة، وبشكل حر أشكال الحديث العامي المبتذل.

وبهذه الطريقة بدأ الجميع الإحساس برؤية نتيجة إحياء العبرية دون سؤال أولئك المسؤولين عنها: عندما أصبحت العبرية لغة اتصال الشباب، ولغير المثقفين، ولجميع طبقات المجتمع في أي نشاط حياتي، خرجت قسرا عن إطار الاهتمام الأسلوبي الواعي للكتّاب والنحويين المدققين، وبدأت تؤثر فيها جميع تلك القوى التي غيرت دون انقطاع بناء اللغات الحية. وسواء حدثت هذه التغييرات في العبرية بسبب جهل متحدثيها بها، أو بتأثير اللغات الأجنبية التي تحدثوا بها سابقا، أو بتأثير اللغة الانكليزية التي استخدمت لغة للإدارة والدراسة والاتصال الخارجي، أو كما ادعى لغويون شباب متأثرون بالمدارس العلمية الغربية- بتأثير قوى فاعلة من داخل اللغة نفسها (وربما كان لجميع العناصر المذكورة نصيبها فيما حدث)، ونتيجة لذلك، ابتعدت اللغة المحكية كثيرا عن لغة الأدب والمدرسة، وطورت نفسها، باستمرار تماما، في القواعد وفي العبارة الاصطلاحية. ولم تنجح جهود المعلمين في أن تجتث من فم الأطفال تعابير مثل *ani lo rotze* (أنا لا أريد) إلى *enei rotze*، و *yesh li it ha-sefer* (لدي الكتاب)

إلى *yesh li ha-sefer*، أو: *hasefer etzli*، و *ani yoshen* (أنـــا نـائم) إلى *ani yashen*، و *otkhem* (إياكم/ معكم) إلى *etkem*، أو *hakhi yafe* (الأجمل) إلى *ha-yafe beyoter*.ولم تكن للمقـــالات المصوبة للأخطاء وأعمدة اللغة في الصحافة أية فائدة- على العكـس تماما: نحن ندرك أن كثيرا من هذه الأخطـــاء تـسمع فـــي شـــوارع فلسطين منذ بدايات سنوات العشرينات.

وفي خلال الخمسينات، جرت محاولات لوصف العبرية المحكيــة علميا. وظهر الوصف الأول في الولايات المتحدة. ونشرت أوصاف واقعية وأكثر منهجية وضعها معلمان من الجامعة العبرية هما حـــاييم بلانك وحاييم روزن. وأدى نشر كتاب روزن بشكل خاص إلى دهشة ونقاش عام عنيف، ونتيجة لذلك أصبح البحث في العبرية الحديثــة- لغة الحديث والكتابة- جزءا من تعليم اللغة فـــي الجامعـــات. وبـــدأ اللغويون في أنحاء العالم يهتمون بنشوء العبرية، التي وجـــدوا فيهـــا نوعا من التجربة المختبرية لظاهرة لغوية عامة. ويجدر القول أن تلك المناظرة وضعت نهاية لذلك الموقف الملحد والمحتقر الـــذي حملـــه اللغويون، ولاسيما علماء اللغات السامية، الذين عدوا هـــذه المحاولـــة بمثابة إحياء لغة ميتة "اصطناعيا".

ولم يكن للحراس المخلصين للعبرية، كما حدث، في تلـــك الأيـــام متسع من الوقت ليمعنوا في الدقة اللغوية. ومع ولادة الدولـــة، بـــدأت موجة هجرة كبيرة أضافت في أقل من أربع ســـنوات (حتـــى عـــام ١٩٥٢) ٧٠٠٠٠٠ نسمة إلـــى أل ٦٥٠٠٠٠ نـــسمة الـــسابقين فـــي الاستيطان. ومن الصعب أن نجد بين هؤلاء المهاجرين الجـــدد مـــن يعرف العبرية. وبدأت صحف تظهر بشكل متزايد بلغـــات أجنبيـــة، وكذلك الحال في الراديو حيث أخذت تبث بـــرامج بمختلـــف لغـــات

المهاجرين. ولأجل معالجة هذا الموقف، بدأ الاستيطان بالعمل؛ فتطوع مئات من الأشخاص الذهاب إلى القرى الجديدة وإلى المعابر (مجموعة أكواخ انتقالية وقتية للمهاجرين) لتعليم عوائل المهاجرين في بيوتهم، وأقيمت شبكة من معاهد اللغة (معاهد لغوية بوقت كامل لتعليم العبرية)، ومعاهد عمل لغوية (حيث كان المهاجرون يعملون نصف النهار ويدرسون العبرية خلال النصف الثاني منه) إضافة إلى معاهد لغوية مسائية. وللتأكد من كفاية التعليم، زود المتعلم الجديد للعبرية بقائمة تضم ألف كلمة شائعة الاستخدام وبمساعدة عدد كبير من المعلمين. ولم تستخدم هذه القائمة الرئيسة أساسا للتعليم (أصلا من خلال كتاب المبتدئين "ألف كلمة" لمؤلفه أ. روزن و ي. بن آشير، مع طبعات متنوعة ومنقحة ل أ. روزن)، بل صدرت سلاسل كتب متنوعة للمهاجرين. وأسست صحيفتان خاصتان بأولئك الذين يتعلمون العبرية هما : *omer* (كلمة) بعبرية اعتيادية وبتشكيل كامل، و *lamathil* (للمبتدئ) بالعبرية البسيطة وبمفردات محدودة.

وقد توج العمل بضم المهاجرين إلى عائلة المتحدثين بالعبرية بالنجاح. وكان ذلك اختبارا قاسيا لحيوية الثقافة العبرية التي تم إحياؤها حديثا، ولكنها تلقت أيضا دعما من عناصر اجتماعية معينة: كانت العبرية اللغة الوحيدة المستخدمة في المجتمع الإسرائيلي التي زودت المهاجرين ذوي الأصول المختلفة بوسائل اتصال بين الجماعات المختلفة. ومع قيام الدولة، أصبحت الاتصالات الشخصية بين أعضاء مجتمعات مهاجرين في إسرائيل شائعة ومتزايدة بشكل اكبر مما هي عليه أيام الانتداب. وكانت إحدى المساهمات الهامة لهذا الانصهار العملي لمجتمعات الشتات، وما زالت، هي جيش الدفاع الإسرائيلي، الذي يجلب الشباب سوية في وحدات، ويعزز عملية

الانصهار الأكثر فعالية من غيرها: الزيجات بين المجتمعات المختلفة. وعلى أية حال، انغمس الجيش أيضا في نــشاطات أكثــر مباشــرية وتخطيطا في هذا الاتجاه لتعليم المهاجرين الشباب العبرية حيثما كان ضروريا.

وفي أثناء الحملة التي صممت مــن اجــل نقــل العبريـــة إلـــى المهاجرين، أدرك الاستيطان فزعه خــلال الــسنوات ١٩٥٤-١٩٥٨ من أن هناك ١٥% من السكان اليهود في فلسطين لا يعرفون القراءة والكتابة بأية لغة كانت. ولم تمثل هذه النسبة مجرد نساء أميّات مــن مجتمعات متخلفة (أكثر من ٥٥%) بل الرجال أيضا. ولم تكن هــذه الحقائق ملائمة للصورة الذاتية لليهود ك "أهل كتاب"؛ فتحولت حملــة نقل العبرية جزئيا إلى فعل لاجتثاث الأمية. وثانية برز الجيش لهــذه المهمة، وأقام منظمة لتعليم القراءة والكتابة لغرض التعليم الأســاس، وأرسل مجندات بصفة معلمات للبالغين الأميين. وأضــافت صــحيفة *لمتحيل*" صفحة للقارئ الجديد، لأولئك الذين كانوا يدرسون العبريــة في الوقت نفسه كوسيلة للقراءة. وقد وجه هذا الاهتمام إلى حقيقــة أن العبرية، كما تكتب وتدرس في المدارس، هي لغة غنية ومعقدة، ومن اجل التضلع بها، فان دراسة الأدب والمصادر القديمة تعد ضرورية، وهذا شئ خاف على الشخص الذي يعرف لغة الحديث فقــط. وهــذه المشكلة هي عامة في لغات العالم الماضي التي نمت خــلال تعلــيم القراءة والكتابة لأجزاء مركزة من السكان الذين لــم يكونــوا علــى اتصال في السابق بالثقافة الأدبية. وهذه المشكلة هي حادة في العبرية بشكل خاص، بسبب تطور الحديث من لغة المصادر القديمة والعلاقة المتينة للأسلوب العبري بتلك المصادر وبتقاليد اللغــة، وأيــضا لأن العبرية كانت تستخدم لوقت قصير فقط كوسيلة اتصال كتابية لجميــع

الطبقات. ولم يظهر بعد أسلوب شعبي بسيط في العبرية، والمادة التي تكتب في أيامنا لغرض الاستهلاك الشعبي- مثل تراجم الروايات الجنائية أو الروايات الرخيصة- التي غالبا ما يعبر عنها بلغة غير دقيقة وفي الوقت ذاته صعبة على القارئ. أما الصحف الرياضية فتشذ عن ذلك، فهي تتضمن أسلوبا بسيطا وممتعا، قريبا من العبرية المحكية وتستخدم العامية بشكل كبير. وقد وجد الاهتمام بالفجوة بين الموضوعات المكتوبة بالعبرية المقبولة وبين قدرة قسم من الناس على فهمها مثل هذه الموضوعات كليا تعبيره منذ نهاية الستينات، وبشكل رئيس في النقاشات التي جرت حول تعليم الأطفال غير المتميزين، ووضعت كتب نصوص خاصة لمثل هؤلاء الأطفال، وجرت محاولات لإنتاج أدب معلوماتي وروايات للأشخاص غير المتميزين.

ومن بين المشاكل التي برزت عند محاولة جلب العبرية بشكل أقرب إلى الناس، وبدت كبيرة هي قراءة العبرية غير المشكلة. وتعد هذه المشكلة في الحقيقة ثنائية؛ فمن الجانب الأول، لا يزود الإملاء غير المشكل التوجيه الكافي للفظ الصحيح للكلمات. ولذلك فإنه لا يعد فقط غير مؤثر في تصحيح الأشكال المغلوطة في الحديث العام، وإنما أيضا يشجع على ظهور الأخطاء الإضافية. أما الجانب الآخر فهو مرتبط بحقيقة أن أغلبية الكلمات التي يتم تهجئتها بدون حركات يمكن أن تقرأ (بشكل صحيح) بأكثر من طريقة. ونادرا ما تؤدي هذه اللاحتمية، إلى فهم الجملة بطرق مختلفة. وعادة يحول سياق الكلام دون اتخاذ تأويلات أخرى للتهجئة، والقارئ المتمرس في اللغة الأدبية لا يواجه صعوبة في ذلك. أما بالنسبة للشعر، حيث تكون إمكانيات سوء القراءة أكبر، فإنه عادة ما يطبع بالحركات. إن ما قلناه يصح

على القارئ المتمرس، وليس على الشخص الذي يمتلك معرفة بسيطة في قراءة نصوص غير مشكلة، أو أولئك الذين يقرأون بشكل نادر، أو أن تضلعهم بالعبرية هو غير تام. مثل هؤلاء القراء قد يغفلوا تلميحات تصحيح موجودة في السياق، ولاسيما في الحالات التي تأتي فيها هذه التلميحات بعد كلمة مشكوك فيها. ويستطيع القارئ المتمرس أن يصحح ذاتيا الأخطاء السابقة، أما غير المتمرس فيمكن أن يصيبه التشويش بسهولة.

وقبل حرب الاستقلال، في عام ١٩٤٨، قدم مجمع اللغة اقتراحا للإملاء الكامل، بحركات منتظمة للضمة المضمومة والمفتوحة وأيضا حالات صوت السين أو الشين وحالات حروف الباء والكاف والفاء. وبسبب أحداث ذلك الوقت، لم يصادق على ذلك الاقتراح رسميا. وفي عام ١٩٥٣، أسست أكاديمية اللغة العبرية التي أخذت على عاتقها مهام (وكذلك معظم أعضائها) مجلس اللغة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هيئة رسمية، واتخذت قراراتها الصفة القانونية بعد مصادقة وزير التعليم والثقافة عليها. وبعد فترة قصيرة، تناولت الأكاديمية مشكلة الإملاء، وعينت لجانا متلاحقة عديدة درست مقترحات أكثر رصانة من مقترحات مجلس اللغة- من بينها تشكيل الحروف بعلامات جديدة توضع بين الحروف فوق السطر. ولم يحصل أي واحد من هذه المقترحات على الأغلبية المطلوبة للأصوات في مشاورات الأكاديمية. وأخيرا، في عام ١٩٦٨، وافق أعضاء هيئة الأكاديمية على تثبيت إملاء مجلس اللغة لعام ١٩٤٨. وبعد سنة تقريبا، في ٢٧ أيار عام ١٩٦٩، نشر وزير التعليم والثقافة هذا القرار في جريدة رسمية. ومن أيلول ١٩٧٣ فصاعدا، بدأ تعليم هذا الإملاء في المدارس الإسرائيلية.

ولم يتغلغل هذا الإملاء بعد في الاستخدام، واتضح منذ منتصف عام ١٩٧٣ أن هذه العملية على ما يبدو ستكون طويلة. ومع ذلك اتسم العمل المنجز بأهمية كبيرة: فقد نظمت الدولة الإسرائيلية للمرة الأولى من خلال هيئاتها المركزية هيئة أساسية للغة العبرية، ويمكن أن نرى في ذلك عملا رمزيا يشير إلى العلاقة الحية بين شعب إسرائيل ولغته.

وعلى أية حال، تنطبق هذه العلاقة في الوقت الحالي فقط على قسم من الشعب الذي يعيش في داخل دولة إسرائيل. أما بين الشعب الذي يعيش في الشتات فقد استمرت هناك حالة نتجت من خلال الاندماج ومن خلال معظم هجرات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: العبرية التقليدية التي وحدت حتى ذلك الوقت يهود جميع البلدان، بدأت تضعف ولم تحل العبرية الحديثة محلها، سواء بوصفها لغة محكية أو وسيلة للقراءة. وتنقل الموضوعات التي تهم اليهود عموما- الدين والثقافة والفكر السياسي- من خلال تراجم متعددة. والمشكلة هنا هي ليست مجرد عدم إدارة الحياة اليهودية باللغة التي أنتجت قيمها الروحية، أو أن هناك عقبة برزت بين التراث الثقافي وبين أولئك الذين يحتاجون إليه بشكل ماس- وإنما تكمن في الحقيقة في أن أي اتصال بين الجماعات اليهودية الكبيرة في الشتات كان بحاجة إلى ترجمة. وإذا أصبحت الانكليزية في أيامنا وسيلة اتصال عالمية في المؤتمرات والدوريات، فإن هذه الحقيقة تؤكد وضعنا الخاص "امة بالترجمة"، حيث أنها تماثل استخدام الانكليزية في التجمعات العالمية، أي للاتصالات بين مختلف الشعوب. ومن الجدير بالذكر أن بداية السبعينات تشير إلى نقطة تحول حيث برز ميل لمساواة المعرفة بالعبرية الحية مع تطابق شخصي بحركة النهضة اليهودية. ويجد ذلك

تعبيره في الزيادة الواضحة لعدد المتحدثين بالعبرية بين الشباب، ليس فقط في الولايات المتحدة وكندا، ولكن أيضا في جنوب أفريقيا وفي غرب أوربا، والاهتمام المتزايد للشباب الأكاديميين بالدراسات العبرية في الجامعات. ويأخذ هذا الاهتمام درامية أكثر في نهضة "اليهودي الصامت" في روسيا السوفيتية، بين يهود أقاموا معاهد لغوية خاصة لتعليم العبرية، على مسؤوليتهم الخاصة الخطرة، يدرسون العبرية سرا، ويكتبون قصائد بالعبرية في السجن. ويكمن الفرق الجوهري في الوقت الحاضر في أن الضغط يأتي من الأسفل، من أولئك الذين لا يعرفون العبرية. ويبدو أن الأمة اليهودية المبعثرة هي في ذات هذه اللحظة في عملية إدراك ذاتها حول قطبي الاتحاد: وطنها المحرر ولغتها التي تم إحياؤها.

المحتـــويــــات

العنوان الأصلي للكتاب

A Short History of the Hebrew Language

By

Chaim Rabin
Professor of Hebrew Language

هذا الكتاب

ان معرفة حضارة معينة يتطلب أولا ترجمة نتاجاتها، وفي حالتنا نتاجاتها اللغوية حيث أهل تلك الحضارة اعرف بتفاصيل لغتهم نحوا وصرفا وأسلوبا وبلاغة لتكون مائدة معدة لكل الباحثين في مجال الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة ليستقرئوا منها ما قد يصوب أو يقوم الآراء والنظريات السابقة، لاسيما أولئك الذين لا يجيدون اللغات الأجنبية، ويفتقرون إلى المراجع العربية.

- بيت الحكمة/ جمهورية العراق- بغداد
- هاتف/ ٠٧٤٠٠١٩٠٨٤٥
- Email: baytal_hikma@yahoo.com
- رقم الايداع فيي المكتبة الوطنية ١٧٥٩ لسنة ٢٠١٠
- طبع / مطبعة النهار الجديد / بغداد
- تصميم الغلاف/ ياسمين عبدالرزاق

